

نبيل فاروق

التميمة

ما الذي كشف السر الرهيب للتميمة بعد ملايين السنين؟
هل مَنْ يمتلك التميمة يملك العالم ويستطيع تغيير المستقبل حقًا؟

عندما تتعرّض زينب وخطيبُها عاصم مهندس الرقميّات لخطر داهم، يبرز فجأةً من تميمة زينب كائنٌ غريب، له قدرات مُذهلة. ما هذا الكائن؟.. وما سرُّ هذه التميمة الغريبة التي توارثتْها زينب عن عائلتها؟.. هذا ما يُحاول عاصم أن يكشفه في هذه الرواية الجديدة الشيقة للمُبدع الدكتور نبيل فاروق.

رحلة مُثيرة وغريبة عبر العصور: من فِرعون ونبي الله موسى (عليه السلام)، إلى كليوباترا والرُّومان، إلى سقوط الدولة الإسلامية في إسبانيا، إلى الناصر صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، وصولا ليومنا هذا.. فما الذي جمع بين هذه اللحظات الفاصلة من تاريخ البشر وبين زينب وعاصم؟

الدكتور نبيل فاروق أشهر كُتَّاب الأدب البوليسي والخيال العلمي في الوطن العربي وأكثرهم شعبية. صدر له أكثر من ٥٠٠ كتاب؛ قدَّم من خلالها عدة سلاسل قصصية. من أشهرها: «ملف المستقبل» و«رجل المستحيل» و«كوكتيل ٢٠٠٠». وُلِد في طنطا بمصر عام ١٩٥٦، وتخرَّج في كلية الطب في طنطا عام ١٩٨٠.

تصميم وصورة الغلاف: جيمي فارس



www.bqfp.c
978-...-42-73-8


دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING



نبيل فاروق

التميمة




دار بلومزبري - مؤسسة قطر للنشر
BLOOMSBURY
QATAR FOUNDATION
PUBLISHING

صدر هذا الكتاب باللغة العربية للمرة الأولى عام ٢٠١١
عن دار بلومزبري – مؤسسة قطر للنشر
مؤسسة قطر، فيلا رقم ٣، المدينة التعليمية
صندوق بريد ٥٨٣٥
الدوحة، دولة قطر
www.bqfp.com.qa

الترقيم الدولي ١٠: ٩٩٩٢١-٤٢-٧٣-١
الترقيم الدولي ١٣: ٩٧٨-٩٩٩٢١-٤٢-٧٣-٨

إلى معشوقتي الأولى....

إلى مصر.....

تميمة كل عصر......

الفصل الأول

انتشر الجليد على مدى البصر، يُغطي الجبال والسهول، التي امتدت فيما يبدو وكأنه اللانهاية، وخفف من انعكاساتها القوية، تلك السحب التي غطت السماء، كثيفة داكنة، على الرغم من انتهاء العصر الجليدي تقريبًا، ولم يكن هناك من صوت، وسط ذلك الفراغ الأبيض الرهيب، سوى صوت الرياح، وصفاراتها المكتومة، التي جعلت المشهد كله أشبه بلوحة مؤلمة، لفنان مُغرق في التشاؤم...

ثم ظهر ذلك الشيء هناك.....

جسم مُتَّشح بفراء سميك لحيوان قديم، يدفع قدميه وسط الجليد الكثيف في صعوبة، وأطرافه، على الرغم من الفراء، تكاد تتجمد بردًا، مما يستحثه على السير، حتى يبعث في جسده الضعيف شيئًا من الحرارة.....

وفوق قمة تبة ثلجية، توقَّف، وراح يُلقي نظرة يائسة على الجليد، الذي يمتد لانهائيًا، قبل أن يشير بيده، فيظهر آخرون من خلفه، راحوا

يتبعونه في صمت يائس، وفريق منهم يحمل، في عناية فائقة، منصة صغيرة، استقر فوقها صندوق مصنوع من أنياب الماموث؛ ذلك الحيوان التاريخي، المُغطَّى بالفراء السميك، والذي يُعدُّ الأب الشرعي للفيل الحالي.....

كانوا، على الرغم من الإرهاق المحفور على ملامحهم، يولون ذلك الصندوق العاجي أهمية بالغة، وهم يسيرون في قافلة صغيرة، بحثًا عن مأوى......

أي مأوى....

ومع سيرهم، كان هناك من يتساقطون...

شيوخ.... ونساء... وأطفال...

الإرهاق والبرد التهما حيويتهم، والنقص الشديد في الغذاء أصابهم بهزال مخيف، سلب منهم آخر مصادر الحرارة، فتجمدت أطرافهم، وعجزوا عن مواصلة السير.....

وسقطوا....

وكدليل بالغ على مدى يأس القافلة وبؤسها، لم يتوقف واحد منهم لمعاونة من يسقط...

بل إنهم حتى لم يلتفتوا إلى من يسقط.....

كان من الواضح أن هذا قد تكرر كثيرًا، حتى جفت المشاعر في القلوب، وصار كل من في القافلة يتوقع المصير نفسه، بين لحظة وأخرى...

وفي بطء، وتساقط مستمر، واصلت القافلة طريقها وسط الجليد، وعددها يتناقص....

ويتناقص....

ويتناقص....

ثم فجأة، توقف قائد المسيرة، ورفع يده يدعو الآخرين للتوقف، وهو يفحص بعينيه مساحة هائلة، من جليد لامع مصقول، والقلق يطل من عينيه وملامحه، على نحو شديد الوضوح....

كان قد أدرك بخبرته الواسعة، أنه أمام بحيرة كبيرة متجمدة.....

وأن سطح مثل هذه البحيرات، ليس سميكًا أو قويًّا كما قد يوحي....

وأنه في أية لحظة.... أية لحظة.... قد ينهار ذلك السطح، تحت ثقل ما فوقه، ويبتلعهم بلا رحمة، وبلا أمل في النجاة...

ولقد دام قلق القائد ما يزيد على دقيقة، بمقاييس زمننا، قبل أن يحسم أمره، ويشير للباقين بالتوقف، ثم يتخذ قراره كقائد، ويبدأ في السير فوق السطح المتجمد.....

كان يسير في بطء وحذر، ويلتفت كل حين وآخر، ليلقي نظرة على تلك المجموعة، التي تحمل ذلك الصندوق العاجي، الذي بدا أنه شيء مقدس، يوليه الجميع أهمية بالغة....

واصل سيره بكل الحذر، وهو يتحسس موضع قدميه جيدًا، ويرسم بعصاه خطًّا يُحدِّد مساره، حتى بلغ الحافة الأخرى، فالتقط نفسًا ظافرًا

قويًّا، ثم التفت إلى الباقين، وشد قامته، ورفع ذراعه عاليًا، ليُطلق صيحة النصر، التي تردد صداها وسط الفراغ الشاسع....

وهنا تنفس الجميع الصعداء، ولكنهم بقوا في أماكنهم، وأفسحوا الطريق لتلك المجموعة، التي تحمل الصندوق العاجي، في إشارة أخرى إلى مدى قدسيته وأهميته البالغة، التي تعطيه الحق في بلوغ بر الأمان، قبل أي واحد منهم....

وفي حذر مماثل، بدأ فريق الصندوق في عبور سطح البحيرة.....

وفي قلق وترقب واهتمام، راح الباقون يراقبونهم....

حتى القائد نفسه.....

الكل نسي نفسه، وأمنه، وسلامته، ولم يعد يشغله سوى ذلك الصندوق العاجي، وما يحويه....

وفي إيقاع ثابت، راح فريق الصندوق يقطع سطح البحيرة....

إيقاع ثابت، صنع ما يُسمَّى بالرنين الحرج، و....

وفجأة، بدأ سطح البحيرة يتشقق....

وشهق الكل في آنٍ واحد....

القبيلة......

والقائد.....

وفريق الصندوق نفسه......

كان الفريق يقف وسط المسافة تمامًا، والشقوق تنتشر من حوله في سرعة مخيفة.....

وصرخ القائد.....

وصرخ كل فرد من القبيلة.....

لم تكن صرخاتهم من أجل الرجال.....

وإنما من أجل ذلك الصندوق.....

ولكن الشقوق تزايدت....

وتزايدت....

وتزايدت....

وفي آنٍ واحد، ودون اتفاق مُسبق، وفي تجاهل تام لأمنهم وسلامتهم الشخصية، ودون حتى مبالاة بذويهم وأولادهم، اندفع الجميع يحاولون حماية الصندوق...

القائد...

والقبيلة....

كل القبيلة.....

ذلك الثقل المفاجئ جعل سطح البحيرة المتشقق ينهار دفعة واحدة، ليهوي الكل في المياه المثلجة...

وارتفعت صرخات رهيبة، تشق فراغ تلك الفترة القاسية، التي سبقت التاريخ المكتوب بمئات الألوف من السنين....

صرخات تدعو إلى أمر واحد فقط...

إنقاذ الصندوق....

وعلى الرغم من المياه، التي تُجمِّد الأطراف، راح أعضاء الفريق يُقاومون؛ لحمل الصندوق فوق السطح، وسبح القائد نحوهم، مستنفرًا كل إرادته.....

كان هناك من يغوصون في المياه المثلجة لآخر لحظة في أعمارهم، ولكنه لم يبالِ إلا بالصندوق.

سبح إليه أحد أفراد الفريق، وناوله إياه، في منتصف المسافة، وجسده كله ينتفض في عنف، ولم يكد يطمئن إلى أن الصندوق قد صار في قبضة القائد، حتى ترك جسده يغوص في المياه المثلجة، مستسلمًا لمصيره.....

أما القائد، فعلى الرغم من الآلام الرهيبة، التي تسري في جسده، مع البرد القارص، حاول أن يسبح بالصندوق العاجي، عائدًا إلى الشاطئ....

حاول...

وحاول...

وحاول....

ومن خلفه، راح أفراد القبيلة يختفون في قاع البحيرة المثلجة، واحدًا بعد الآخر، حتى لم يعد هناك أحد منهم..

على الإطلاق.....

ولم يكن القائد قد بلغ الشاطئ بعد...

كانت أطرافه كلها قد تجمدت تقريبًا، وما زال الشاطئ يبعُد عشرة أمتار على الأقل، مما يوحي بأنه لن يصل إليه أبدًا...

لذا، فقد استنفر كل قواه...

ليس ليسبحَ نحو الشاطئ، ولكن ليُلقي الصندوق، بكل ما تبقى له من قوة، نحو الشاطئ...

وفي نفس اللحظة، التي ارتطم بها الصندوق بالشاطئ، وبدأ يتدحرج فوقه، كان القائد يستسلم مثل الباقين لمصيره المحتوم، ويغوص ككتلة من الثلج في قاع البحيرة....

ومع فناء آخر أفراد القبيلة وقائدها، ارتطم الصندوق العاجي بصخرة متجمدة، و....

وانفتح...

ومنه سقطت قلادة...

قلادة من أحجار ملونة دقيقة، في منتصفها كرة من معدِنٍ لامع مصقول، تحوي ثلاث فجوات دقيقة في الطرف المقابل لطرف ربطها بالقلادة بالضبط.....

ولجزء من الثانية، تألقت تلك الكرة اللامعة، ثم عادت تخبو، وصمت كل شيء، حتى صوت الرياح...

وصار المشهد كله بالفعل أشبه بلوحة مخيفة...

للغاية..

الفصل الثاني

تعالى وقع حوافر جواد قوي، لذلك الفارس المصري القديم، الذي ينطلق في انفعال واضح، نحو الخيمة الفِرعونية، وسط تلك القوات المصرية الجرارة، التي تكاد تُغطِّي ذلك الجانب من البرية، ولم يكد يصل إلى مسافة مناسبة، حتى وثب من فوق جواده، وخفض عينيه في خضوع شديد، وهو يعدو نحو الفِرعون، ثم ينحني راكعًا على ركبتيه، وهو يلهث في انفعال جارف، جعل الفرعون يسأله في صرامة:

- هل رصدتهم؟!

واصل الفارس لهاثه بضع لحظات، قبل أن يقول، من بين لهاثه:

- لقد... لقد عبروا يا مولاي الإله.

ارتفع حاجبا الفِرعون في دهشة مُستنكرة غاضبة، قبل أن يهتف:

- عبروا ماذا؟!.... وكيف؟!

كان الفارس ينافس صوته ارتجافًا، وهو يقول:

ـ عبروا البحر الكبير يا مولاي الإله.

هبَّ الفِرعون من عرشه، صارخًا في غضب:

ـ هل جُننت يا هذا؟!... كيف لهم بعبور البحر الكبير، دون أن يمتلكوا مركبًا واحدًا؟!... جواسيسنا أكَّدوا أنه لا يوجد مركب واحد هناك.

راح الفارس يلوح بيديه في اضطراب، وحلقه عاجز عن النطق، حتى صرخ فيه الفرعون:

ـ أجب وإلا أمرتُ بقطع رأسك فورًا.

خفض الفارس عينيه أكثر، في انكسار مضطرب، وهو يقول:

ـ عفوكَ مولاي الإله... أخشى أن أتحدث بما رأت عيني، فلا يُصدِّقني مولاي، ويتهمني بالكذب، ويصبُّ جامَ غضبه عليَّ وعلى عائلتي المسكينة....

شعر الفِرعون بما يعانيه فارسه، فشد قامته، مُحاولًا السيطرة على مشاعره وثباته، وهو يسأله في صوت دفع إليه أكبر قدر أمكنه من الصرامة والقسوة:

ـ صِفْ ما رأيتَ بالضبط.

قال الفارس، واضطرابه يتزايد:

ـ ما رأيتُه ليس له من مثيل يا مولاي الإله!!... أمرٌ يتجاوز كل سحر عرفناه ورأيناه.

فقد الفِرعون صبره، فصرخ في قوة أكثر:

ـ أفصِحْ يا هذا.

أجابه الفارس، وهو يرتعد، على نحو غير طبيعي:

ـ لقد بلغ موسى وقومه شاطئ البحر الكبير، فسألوه كيف يُمكنهم عبوره، وهنا رفع موسى عصاه، وأشار إلى البحر، فـ..... فـ....

اندفع أحد كهنة الفرعون، متسائلًا في لهفة:

ـ فماذا يا رجل؟!...

رمق الفِرعون كاهنه بنظرة قاسية، جعلت هذا الأخير يتراجع منكمشًا، وهو يُتمتم مرتجفًا:

ـ عفوكَ مولاي الإله.

وقبل حتى أن تكتمل عبارته تلك، كان الفارس يُجيب، في ارتجافة بلغت أقصاها:

ـ فانشقَّ.

التفت إليه الفرعون وكهنته في دهشة، وسأله الفرعون في استنكار:

ـ ما الذي انشق؟!

أجابه الفارس، في خضوع شديد الارتجاف:

ـ البحر يا مولاي الإله... انشق البحر، وعبره موسى وقومه، كما لو أنهم يسيرون بين جبلين من الماء.

تراجع الكهنة في ذُعر، وغمغم الفِرعون ذاهلًا:

- انشقَّ البحر بسحر موسى؟!

وتساءل أحد الكهنة:

- أآلهته بهذه القوة؟!

صرخ فيه الفرعون، في غضب هادر:

- اصمت.

ثم هتف في صرامة عصبية:

- انشق البحر لهم ولنا..... سنُطاردهم عبرَهُ، إلى أقاصي الأرض.

ارتجف أحد الكهنة، وهو يقول:

- ولكنْ يا مولاي...

اندفع الفِرعون نحو عربته الحربية، وهو يهتف:

- لا يوجد لكنْ.... فليتبعني كل من يُؤمن بي.... هيا.

قالها، ووثب على عربته، وجذب عنان أحصنته، وهو يهتف في كل جنوده:

- هيا.... سنظفر بقوم موسى، ونُريق دماءهم بحرًا كبيرًا... هيا... اتبعوني.

انطلق رجاله خلفه، وتردد الكهنة لحظات، حتى صاح بهم كبيرهم:

- سنتبع الفِرعون الإله.

تحرَّكوا جميعًا فيما عدا واحدًا منهم، سقط جاثيًا على ركبتيه، وهو يُغمغم في توتر:

- حتى أكبرُ سَحرَتنا، لا يُمكنهم هذا.

صرخ فيه كبير الكهنة:

- هل آمنت بآلهة موسى؟!

أشار الكاهن بسبَّابته إلى أعلى، وهو يقول:

- بل بإله موسى.... إلهٌ واحدٌ كما دعا إليه... إلهٌ قادرٌ على شقِّ البحر؛ لإنقاذ نبيه.... إلهٌ واحدٌ.

صرخ الكاهن في غضب:

- ويحك أيها الكافر..... كفرت بآلهتنا.

واندفع نحوه على صهوة جواده، وركله في صدره ركلة قوية، أسقطته أرضًا، فانغرست أصابعه في الرمال، وهو يهتف في ألم:

- إنه إلهٌ واحد.

دار كبير الكهنة بجواده حوله في غضب، صارخًا:

- وتُكرِّرها يا مَنْ كفرت بآلهتنا!

اصطدمت أصابع الكاهن بجسم ما، مدفون تحت الرمال.....

جسم أشبه بقلادة من الحجر.....

وفي حركة آلية، انتزعها من مكانها، وهو يستدير لمواجهة

كبير الكهنة، ويرفع يديه ليحمي بهما وجهه، من الركلة المتوقعة القادمة.....

والتمعت تلك الكُرة المعدِنية، عندما انعكس عليها ضوء الشمس....

ومع انعكاسها، اتسعت عينا كبير الكهنة في رُعب....

رُعبٌ يُوحي بأنه قد رأى شيئًا ما.....

شيء لم يُثِر رُعبه وحده، وإنما رَعب جواده أيضًا..

فقد أطلق الجواد صهيلًا قويًا وهو يرفع قائمتيه الأماميتين على نحو مفاجئ، ويضرب بهما الهواء ضربتين، قبل أن يُلقي كبير الكهنة عن ظهره، ثم ينطلق هاربًا بأقصى سرعته....

أما كبير الكهنة، فقد نهض مذعورًا، ولوَّح بيديه في الهواء، صارخًا:

ـ لا.... الرحمة.... الرحمة...

ثم انطلق بدوره يعدو، وكأنما تُطارده شياطين الدنيا كلها....

وفي ذهول حائر، حدَّق الكاهن في القلادة، التي تحملها يده، والتي واصلت التماعها، على الرغم من أنها لم تعُد تواجه الشمس....

كانت شيئًا، لم يرَ مثله من قبل....

شيء، أيًا كانت ماهيته، فقد أنقذه....

وفي امتنان شديد، قبَّل تلك الكُرة المعدِنية، التي بدت لشفتيه شديدة البرودة، على نحو لا يتفق مع حرارة الطقس من حولهما، ولكنه غمغم في ارتياح:

ـ لقد أرسلكِ إله موسى لحمايتي.

وفي خشوع شديد، علَّق القلادة في عنقه، ثم انحنى يلتقط عصاه، ووقف يتساءل.... تُرى هل سيلحق الفِرعون بفرائسه.....

في بحر موسى؟!

هل؟!

الفصل الثالث

صرخة مدوية، تلك التي انطلقت من حلق «كليوباترا» ملكة مصر، عندما بلغها ذلك الخبر المشئوم....

خبر انتحار «أنطونيوس»، بعد خسارته معركة «أكتيوم».....

بهذا فقط خسرت كل شيء...

ملكها....

ومملكتها....

وحبها...

كانت وحيدة في مخدعها، لذا فقد تركت نفسها تسقط على ركبتيها، متخلية عن ذلك التعالي الملكي التقليدي.....

ففي تلك اللحظة، لم تكن ملكة...

بل كانت امرأة.....

امرأة فقدت حبها....

فقدت الدفء...

والحنان...

والأمان....

ليس هذا فحسب، ولكن جواسيسها أكدوا أن قائد الرومان، قد صرَّح، بأنه سيعيدها إلى روما، في موكب يفوق موكبها السابق، الذي بهرت به عاصمة أعظم إمبراطورية في عصرها، عندما ذهبت إليها مع ابنها من «يوليوس قيصر»...

القائد «أوكتافيوس» يقول إنه سيُعيدها إلى روما عارية، في قفص من الخشب، أسيرة كحيوان بدائي حقير....

«كليوباترا»، التي ركع الملوك أمامها، يريدونها حيوانًا بدائيًا حقيرًا... هيهات.....

نهضت واقفة على قدميها، ومسحت دموعها في اعتداد، وهي ترفع رأسها، وكأنها تقف أمام شعبها...

إنها «كليوباترا»....

وستظل «كليوباترا»...

الجماهير في الخارج تهتف لها، متصورة أنها قد لقيت النصر في معركة «أكتيوم»....

الجماهير مخدوعة...

ولكنها لن تظل كذلك....

سرعان ما ينتشر الرومان بجنودهم في الطرقات، ويسيطرون على كل شيء، عندما تستقر مراكبهم على شواطئها....

ولن يمضي وقت طويل، قبل أن يقتحم «أوكتافيوس» وجنوده قصرها، ويسعون إلى أسرها وإذلالها...

ولكن لا....

لن يحنوا رأس «كليوباترا» أبدًا.....

أبدًا.....

صرخت تنادي جاريتها، فدخلت إليها مُنحنية كسيرة، وقد بلغها خبر الهزيمة، وأدركت مثلها عواقبها:

ـ أمرك مولاتي.

رفعت «كليوباترا» رأسها في اعتداد، وهي تقول:

ـ السم.... أريد أقوى سم.... سلي الكهنة عن أقوى سمومهم.

انحدرت دموع المرارة من عيني الجارية، مع تلك الكبرياء، التي تحدثت بها الملكة، وغمغمت بصوت باكٍ:

ـ ألا توجد وسيلة أخرى؟!

أزاحت «كليوباترا» الأستار عن نافذتها، ورأت الأعلام الرومانية تلوح من بعيد، فعادت تسدلها، قائلة في حزم وحسم:

ـ كلا.

بكت الجارية بصوت مسموع، وهي تقول:

ـ ولكنَّ أحد الكهنة يقول إن لديه وسيلة للحماية، ورثها عن أجداده.... إنها تميمة مقدسة، و....

قاطعتها في صرامة:

ـ دعيه ينسى أمر الحماية... لقد انحسم الأمر، ولكنني ما زلت ملكة البلاد، حتى يدخلوا القصر للاستيلاء عليه، وأوامري لا بد أن تطاع.

انحنت الجارية ساجدة أمامها، قائلة في يأس:

ـ أمرك مُطاعٌ يا مليكتي.

ألقت «كليوباترا» نظرة أخرى عبر النافذة، وبدأ التوتر يهزم كبرياءها ورصانتها، وهي تقول:

ـ إنهم يقتربون... لا أريد سمًّا.... بل مصدر السم... أريد حية.... حية رقطاء... إنني أحتفظ بواحدة؛ لمثل هذه المواقف... أسرعي... ستجدينها هناك، أسفل خزانة العطور.. داخل سلة مغلقة... أسرعي.

كانت الجارية تبكي في حرارة ومرارة، إلا أنها أسرعت لتنفيذ الأمر الملكي، في حين اتَّجهت «كليوباترا» إلى مرآتها، وعدلت زينتها، قائلة لنفسها، في صوت سمحت لكل التوتر بالإفصاح عن نفسه فيه:

ـ لا بد أن تموت «كليوباترا» في أبهى صورها.

في تلك اللحظة، كان الكاهن، الذي ورث القلادة عن أجداده

يجلس في مِحرابه، مُمسكًا بها في قوة، وهو يتلو صلاة غامضة لآلهته، ختمها بقوله:

ـ إنها ستحميني.... أنا واثق من أنها ستحميني.... أجدادي قالوا إنها تحمي حاملها...

اقتحم جنود الرومان مِحرابه، فلم يتحرَّك من مكانه، وإنما ارتفع صوته، وهو يقول:

ـ الحماية أيتها التميمة المقدسة.... الحماية.

سمع وقع أقدام تقترب منه في سرعة، وصليل سيوف من خلفه، وصرخات دموية في كل مكان بالقصر، تلتها صرخة جارية هلعة:

ـ مولاتي.... ماتت مولاتي.

ومع آخر الصرخة، سمع صوت سيف يرتفع من خلفه، فأغلق عينيه وصرخ:

ـ الحماية.

ترددت صرخته، وامتزجت بصوت السيف يهوي بقوة، أعقبها صوت ارتطام رأسه بالأرض، وسقوط جسده في الاتجاه المُعاكس، وإن بقيت يده ممسكة بالتميمة في قوة.....

وبين أصابعه، التمعت التميمة.....

وأدهش التماعها عيون الرومان.....

وبلا مقدِّمات، تحوَّلت الدهشة في عيونهم إلى فزع....

فزع رهيب، جعلهم يتراجعون، ويُطلقون صرخات رعب، ثم يعدون خارجين من المكان....

ولدقائق طوال، ظل المكان أشبه بمقبرة صامتة، تفوح منها رائحة دم قوية....

وخبا بريق تلك الكُرة المعدِنية رويدًا، حتى تلاشى تمامًا....

وفي حذر، امتدت يد قائد روماني تلتقطها، وراح يتأملها في حذر، قبل أن يسأل ضباطه:

ـ أهذا ما أثار رُعبكم؟!

أجابه أحدهم في توتر:

ـ بل ما خرج منه.

قلَّب القائد الروماني تلك القلادة الخاملة بين يديه، وغمغم:

ـ تبدو لي عادية جدًّا.

ثم دسَّها في حزامه، وهو يلتفت إليهم، مستطردًا:

ـ ربما هي أحد أسرار المصريين، التي سنحتاج إلى أعوام وأعوام لفهمها، ولكنها، وفي كل الأحوال، تصلح كهدية أنيقة لزوجتي أو عشيقتي في روما....

قالها، وأطلق ضحكة مجلجلة....

ضحكة تألَّقت لها الكُرة المعدِنية لحظة، ثم عادت تخبو....

طويلًا.

الفصل الرابع

«الأندلس أصبحت لنا...»....

تردَّد هُتاف طارق بن زياد قويًّا وسط جيشه، الذي شملته فرحة عارمة، بعد الانتصار على الإسبان، بكل قوتهم وشهرتهم الحربية، وراح بعض الجنود والضباط يصلُّون لله سبحانه وتعالى شكرًا، ثم لم يلبث الجميع أن انشغلوا بحصاد النصر، وفرض السيطرة، وراحوا ينتشرون في كل مكان، ويعلنون انتصارهم بإطلاق الأذان، من فوق الأسطح وفي الميادين....

ووسط كل هذا، خلع القائد حسام الدين خوذته، والتقط نفسًا عميقًا، وهو يقول لصديقه القائد المنصور:

ـ ها قد فعلناها يا رجل.... عبرنا البحر، ونشرنا الإسلام على الجانب الآخر منه، بفضل الله عز وجل.

أومأ المنصور برأسه إيجابًا، وقال مبتسمًا:

ـ وببراعة وحنكة طارق أيضًا.

شد حسام قامته في اعتداد، وقال:

- حرق المراكب كان لمحة عبقرية، فلم يعد أمام الجميع بعدها إلا القتال، بكل بأس وضراوة.

ضم المنصور قبضته، وهو يقول:

- هذا هو طارق.

بلغ مسامعهما في هذه اللحظة صراخ امرأة، فاعتدلا في آنٍ واحد، ثم اندفعا نحو مصدر الصوت، والمنصور يهتف:

- إنها امرأة رومية.

هتف حسام الدين في حزم، وهو يستلُّ سيفه:

- لا فارق.... إنها امرأة.

كان الصراخ يأتي من طريق ضيق، اندفع إليه الرجلان، قبل أن يهتف المنصور، مشيرًا إلى نافذة كبيرة، ذات زجاج ملوَّن:

- الصرخة تأتي من هنا.

وثب حسام الدين وثبة مدهشة، اخترق بها تلك النافذة، غير مبالٍ بزجاجها، الذي تطاير من حوله، وهو يهبط بقدميه داخل منزل إسباني تقليدي، التصقت فيه امرأة حسناء بالجدار في رعب، وهي تحدق في جندي عربي، يرفع سيفه في وجهها، ويُحاصرها في شراسة....

وبوثبة أخرى، هبط حسام الدين بين الجندي والمرأة، وهو يصرخ في غضب هادر:

- ويحك يا رجل... كيف تُفزع امرأة؟!... ألم يأمرك قائدك باحترام نساء الروم، وعدم المساس بهن؟!

تراجع الجندي في فزع، وهو يردد:

- القائد حسام الدين..... عفوك يا سيدي..... عفوك.

اندهشت المرأة لموقف الضابط العربي مع جنديه، واندهشت أكثر، عندما ضرب حسام الدين سيف الرجل، وألقاه جانبًا، ثم أمسك بالجندي في غضب، صارخًا في وجهه:

- يمكنني أن أقطع رأسك الآن لهذا.

دخل المنصور المنزل هذه اللحظة، وهتف:

- ويحك يا حسام... الرجل انبهر بالجمال الرومي.

هتف الجندي مذعورًا، وهو يلوح بيديه:

- معاذ الله يا سيدي... معاذ الله... إنها كانت تحاول إخفاء كنز، وأردت منعها من هذا.

صرخ فيه حسام الدين، وهو يهزه في قوة:

- مهما كانت المبررات، لا ترفع سيفك في وجه امرأة ثانية وإلا قطعت يديك، وحرمتك من حمله مدى حياتك.

خفض الجندي عينيه، مُغمغمًا:

- عفوك يا سيدي القائد... عفوك.

رمقه حسام الدين بنظرة غاضبة صارمة، ثم أفلته بحركة عنيفة، وهو يقول في حدة:

ـ التقط سيفك وارحل.... هيا.

أسرع الجندي يلتقط سيفه، ويعدو خارجًا، في حين انحنى حسام الدين، يلتقط غطاء رأس المرأة، وناوله لها، دون أن يرفع عينيه إليها، وهو يقول في احترام، وباللغة الإسبانية:

ـ تقبلي اعتذارنا يا سيدتي... أعدك أنَّ هذا لن يتكرر مرة أخرى، وأنك آمنة في منزلك ما حييت.

التقطت المرأة غطاء رأسها في انبهار، وهي تُغمغم:

ـ أأنت حقيقي؟!

رفع عينيه إليها في دهشة، يسألها:

ـ عفوكِ سيدتي؟!

ابتسم المنصور، وعقد ساعديه أمام صدره، يراقبهما، والمرأة تقول في انبهار واضح:

ـ أسألك.... أأنت حقيقي؟!..... منذ تفتَّحت عيناي للدنيا، لم يعتذر لي رجل عن أذى سببه لي، فكيف بقائد منتصر، يعتذر لامرأة الشعب المهزوم، عن أذى سببه غيره!!

شدَّ حسام الدين قامته، وهو يُجيبها:

ـ هذا هو ديني سيدتي.... الدين الذي حاربت لنشره وسط شعبك.

سألته في صوت مبهور:

ـ بالقوة؟!

أجابها في اعتداد:

ـ القوةُ لنضع أقدامنا هنا فحسب يا سيدتي، أما بالنسبة للدين، فلا إكراه فيه... سيتبيَّن لكم الرشد من الغي، ومَن شاء فليؤمن، ومَن شاء فليكفر.

غمغمت:

ـ لو أنَّ هذا دينكم، فسيؤمن بكم الكثيرون.

أجابها وهو يخفض عينيه عن حُسنها:

ـ سيكون هذا من فضل ربي سبحانه وتعالى.

ثم أشار إليها بيده، مردفًا في أدب جم:

ـ عفوكِ سيدتي.... سأرسل جنودي لإصلاح الزجاج، ويمكنك الاحتفاظ بما تشائين، فلن يمس أحدهم عتبة دارك، مهما كان الكنز الذي تحتفظين به هنا.

أطلقت ضحكة رقيقة ناعمة، وهي تقول:

ـ كنز؟!

ثم رفعت يدها بتلك القلادة، المصنوعة من أحجار صغيرة ملوَّنة، والتي تتدلى منها تلك الكُرة المعدِنية، ذات الثقوب الثلاثة، مستطردة:

ـ هذا هو الكنز، الذي كنت أحاول حمايته.

بمنتهى الاهتمام، وبدافع من الفضول وحده، تطلَّع حسام الدين والمنصور إلى القلادة، قبل أن يُغمغم الأخير في دهشة:

ـ قلادة من الحجر؟!

أومأت برأسها، وابتسمت ابتسامة شديدة العذوبة، وهي تقول:

ـ إرث عائلي، نحرص عليه حرصنا على حياتنا نفسها.

تمتم حسام الدين في دهشة:

ـ إلى هذا الحد؟!

تطلَّعت إليه الحسناء، بعينين سوداوين واسعتين، لهما رموش سوداء طويلة جميلة، وقالت:

ـ هذا ما أوصونا به... قالوا إنها تحمي صاحبها، إذا ما أحسن التعامل معها.

تبادل المنصور وحسام الدين نظرة دهشة، ثم لم يلبث الأخير أن غمغم:

ـ ولكننا لا نؤمن بمثل هذه الأمور يا سيدتي.

تضرَّج وجهها بالحُمرة، وهي تقول:

ـ ولكنْ هل يمكنك أن تحني رأسك قليلًا؟!

تردد حسام الدين لحظة، ثم استشار زميله المنصور بعينيه، فأومأ

برأسه إيجابًا، مع ابتسامة موافقة، فاقترب منها حسام الدين خطوتين، وأحنى رأسه نحوها، وكاد عطرها يُسكِره، عندما رفعت يديها، ووضعت القلادة حول عنقه، قبل أن تتراجع، وتُخفي وجهها بغطاء رأسها، متمتمة في خجل شديد:

ـ أوصونا أن نُبقيها داخل العائلة... فهل... هل...

لم تستطع إتمام عبارتها، وبدت الحَيرة على وجه حسام الدين، فرفع المنصور إحدى كفيه، وقال بابتسامة عريضة:

ـ إنه عرض زواج يا رجل.... ومِن أجمل حسناء وقعت عليها عيناي، في الأندلس كلها.

ارتبك حسام الدين، وتطلَّع إلى الحسناء في اضطراب، فازداد احمرار وجهها، وحملت عيناها ذلك المزيج المدهش، من الفرحة والقلق والترقُّب، فرفع هو عينيه، يتحسس تلك الكُرة المعدِنية، و.....

وفجأة، سرى في جسده شعور عجيب...

شعور انبعث من تلك الكرة، التي بدت باردة كالثلج، ولكنَّها أطلقت من نفسه موجة عجيبة من الدفء..

موجة جعلته يُدرك أمرين اثنين...

أولهما، أنه سيقبل عرض تلك الحسناء بلا تردد....

والثاني، هو أن تلك القلادة تستحق أن تكون إرثًا عائليًا، يموت المرء من أجله....

هذا لأنها ـ حتمًا ـ ليست قلادة عادية....

إنها شيء يستحيل تفسيره، بمقاييس هذا العصر...

وربما لعدة عصور قادمة....

شيء، أصبح هو شخصيًا، وبلمسة واحدة، مستعدًا للموت من أجله.....

وبلا تردد....

على الإطلاق.

الفصل الخامس

احتقن وجه الملك «ريتشارد» في شدة، وهو يصرخ في قائد جيوشه، على أعتاب القدس:

ـ ماذا تعني بأنهم منتصرون؟!... إنني لم أترك مملكتي في أوروبا، حتى يهزمني عربٌ برابرة هنا.... أنا «ريتشارد» قلب الأسد.... هل تسمعني يا هذا... الملك «ريتشارد» قلب الأسد، الذي لم يُهزم في حياته قط..

ارتجف قائد الجيوش أمامه، وهو يقول:

ـ الخيانة يا مولاي... قوات أوروبا خانتنا.... ملك فرنسا انسحب، و....

صرخ يقاطعه:

ـ وماذا؟!.... هل سأخبر شعب بريطانيا بذلك الهراء السخيف، عندما أعود إليهم مهزومًا؟!..

ثم امتزج غضبه بالمرارة، وهو يضيف:

ـ الفلاحون في الحقول، والحطَّابون في الجبال، والبناءون في المدن، يهتفون باسم «ريتشارد»، الذي لم يذُقْ الهزيمة في حياته قط.... فكيف تخبرني الآن أن العرب البرابرة يتقدَّمون علينا، وأن قواتنا المتحالفة تنهار أمام جيوشهم.

خفض قائد الجيوش رأسه في مذلة، وهو يقول:

ـ ليسوا برابرة يا مولاي، بل فرسان أقوياء، يقاتلون في بسالة وبأس، لهدف يؤمنون به تمامًا...

صرخ فيه «ريتشارد»:

ـ أهذا ما يقوله قائد جيوشي؟!...

بدا صوت الرجل أكثر مذلة، وهو يقول:

ـ هذا ما يحاول به قائد الجيوش إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

رجَّت صرخة «ريتشارد» أركان خيمته:

ـ جبان.

عض الرجل شفتيه في مرارة، قائلًا:

ـ لست جبانًا يا مولاي، ولكنني قائد عسكري، يعرف جيدًا متى ينبغي له أن ينسحب، حتى يتفادى ما هو أمرُّ من الهزيمة.

انخفض صوت «ريتشارد»، وكأنما بدا يدرك فداحة الأمر، وهو يقول:

ـ وما هو الأفدح من الهزيمة؟!

انخفض صوت القائد بدوره، وهو يقول:

ـ الأسر يا مولاي.... الأسر.

لم يكد يُتم قوله، حتى اندفع أحد الجنود داخل خيمة الملك، متجاوزًا كل القواعد، وهو يهتف في فزع:

ـ مـولاي..... الجيوش العربية تُحاصرنا يا مـولاي..... لقد خسرنا..... خسرنا «أورشليم»، وخسرنا الحرب، و....

صرخ فيه «ريتشارد»، وهو يستلُّ سيفه، ويرفعه عاليًا:

ـ خسئت يا هذا..... إنك تستحق.....

تراجع الجندي مذعورًا، ورفع يده يحمي وجهه، وتألَّقت قلادة من الحجر في عنقه، و.....

وشهق قائد قوات «ريتشارد»، في حين ارتد هذا الأخير إلى الخلف في حدة، وكأنما أصابته صاعقة مباغتة، واتسعت عيونهما معًا في ارتياع شديد، جعل الجندي يُخفض ذراعيه، ويتراجع في دهشة بدوره.....

وهنا، خبا تألُّق تلك الكرة، في نهاية قلادته الحجرية......

ولثوانٍ، ران على الخيمة الملكية صمت رهيب....

صمت مهيب....

متوتر....

مخيف....

ثم قطع قائد القوات ذلك الصمت، وهو يتمتم في خفوت مذعور، لا يتفق مع موقعه:

ـ رباه!..... ما هذا؟!

تراجع الجندي في دهشة أكثر، ولكن «ريتشارد» أشار إليه، قائلًا في لهجة ملكية، جمعت بين التوتر والصرامة:

ـ ما الذي تضعه في عنقك يا رجل؟!

تحسس الجندي القلادة في توتر، وهو يجيب بصوت مرتجف:

ـ إنها غنيمة يا مولاي..... قلادة انتزعتها من جثة عربي، لقي مصرعه بأحجار المنجنيق.

ردد «ريتشارد» في توتر، وهو يحدِّق في القلادة:

ـ غنيمة؟!

أسرع الجندي ينتزع القلادة من عنقه، وينحني انحناءة كبيرة، وهو يقدِّمها للملك، قائلًا:

ـ غنيمة تليق بمولاي الملك.

مد «ريتشارد» أصابعه في حذر، يتحسس القلادة بأصابع ارتجفت، على الرغم منه....

وما إن لمسها، حتى تحوَّلت ارتجافة أصابعه إلى ارتجافة شاملة، سرت في كيانه كله....

كانت تلك السلسلة، المصنوعة من الأحجار الصغيرة، لها ملمس

عجيب، يُخالف ملمس أية أحجار عرفها من قبل، أما تلك الكُرة المعدِنية في نهايتها، فقد كانت باردة، على نحو يتعارض تمامًا مع حرارة الطقس...

كانت باردة كالثلج...

أو ربما أكثر برودة...

ثم إنها كانت ملساء، أكثر من أي معدِن عرفه في حياته...

وفي توتر مندهش، قلَّب «ريتشارد» تلك القلادة بين أصابعه، وقائد جيوشه مع الجندي، يتطلَّعان إليه في ترقب، قبل أن يُغمغم:

ـ أيمتلك فرسان العرب هذا؟!

التقط قائد الجيوش نفسًا عميقًا، وشد قامته قليلًا، في شيء من الارتياح....

ها هو ذا الملك «ريتشارد» قلب الأسد، ولأول مرة، يعترف بأن العرب ليسوا برابرة، بل هم فرسان، لا يُشقُّ لهم غبار...

يعترف، وقد أحاطوا به بالفعل...

وفي خفوت، تمتم قائد الجيوش:

-إنهم يقتربون يا مولاي.

التفت إليه «ريتشارد»، وتمتم في لهجة أقرب إلى الشرود:

-يقتربون؟!

قال قائد الجيوش، في توتر واضح:

ـ لو أطبقوا قبضتهم علينا يا مولاي، فسوف...

قاطعه «ريتشارد» بنفس الشرود:

ـ أرسل إليه.

بدت الدهشة على الجندي، وتمتم قائد الجيوش:

ـ إلى من؟!

استعاد صوت «ريتشارد» حزمه الملكي، وهو يقول:

ـ أرسل إلى صلاح الدين، وأخبره أن الملك «ريتشارد» يرغب في عقد لقاء ودِّي معه.

تراجع قائد الجيوش في دهشة، وهو يقول:

ـ لقاء ودِّي؟!

أجابه «ريتشارد»، بمنتهى الحزم:

ـ نعم... لقاء بين ملكين، أو بين قائدين عظيمين.... أرسل إليه هذا فحسب.

تردَّد قائد الجيوش، مُغمغمًا:

ـ ولكن يا مولاي....

زمجر «ريتشارد»، قائلًا:

ـ صلاح الدين قائد عظيم، وفارس شهم نبيل، و«ريتشارد» قلب

الأسد يحترم كل فارس نبيل... أرسل إليه يا رجل، وأبلغه، حتى تعود إلى الديار سريعًا.

انحنى قائد الجيوش، وهو يتراجع قائلًا:

ـ أمر مولاي.

غادر الخيمة الملكية مع الجندي، وتركا «ريتشارد» خلفهما وحده، فبقي هو صامتًا بضع لحظات، قبل أن يرفع القلادة قُرب وجهه، وهو يُغمغم:

ـ أنتِ الغنيمة الوحيدة، التي سأعود بها إلى بلادي إذن.... تُرى كم تساوين؟!...

وكان تساؤله في محله تمامًا....

تُرى كم تساوي تلك القلادة؟!

كم؟!

الفصل السادس

استنشق «جون إدوارد»، جندي القوات البريطانية هواء الإسكندرية، في عمق ونشوة، قبل أن يرتكن إلى حاجز السفينة، قائلًا لزميله «ألبرت» في شغف:

- أخيرًا رأيتها.

التفت إليه «ألبرت»، متسائلًا في دهشة:

- من تلك؟!..

أشار «جون» بسبَّابته، مجيبًا بنفس الشغف:

- الإسكندرية.

ارتفع حاجبا «ألبرت» في دهشة، وهو يقول:

- أتعشقها إلى هذا الحد؟!

أغمض «جون» عينيه، وهو يستنشق هواء الإسكندرية، مرة أخرى في عمق، قبل أن يقول:

ـ أعشقها؛ لتاريخها الرائع يا رجل، منذ بناها الإسكندر الأكبر، ومنحها اسمًا يخلد ذكراه، وحتى حطَّت فيها قواتنا، منذ ما يقرب من ثمانية عشر عامًا.

هتف «ألبرت» مبهورًا:

ـ إلى هذا الحد؟!...

ابتسم «جون» ابتسامة شغف، وهو يُغمغم:

ـ وربما أكثر مما تتصور.... بكثير.

هزَّ «ألبرت» رأسه، وابتسم بدوره، وإن جاءت ابتسامته حائرة، وهو يقول:

ـ ربما يعود هذا إلى أصولك النبيلة.

أطلق «جون» ضحكة قصيرة، وهو يقول:

ـ ليست نبيلة إلى هذا الحد.... جدي كان أحد ضباط الملك «ريتشارد» المخلصين، فأنعم عليه بلقب فارس، ومنحه إقطاعية صغيرة في «يوركشاير»، و...

صمت لحظة، تحسس خلالها القلادة المعلَّقة في صدره، ثم أكمل:

ـ وبعض الهدايا الصغيرة.

لم يسمع «ألبرت» عبارته الأخيرة، وهو يشير إلى الشاطئ، قائلًا في حماس مدهش:

ـ إنهم يستعدُّون لاستقبالنا.... أترى؟!

لم يكن استقبالًا حافلًا، كما تصوَّر «ألبرت»، وإنما كان استقبالًا عسكريًا نمطيًا، انضما خلاله إلى الحامية البريطانية في الإسكندرية، وتم توزيعهما في معسكر الإبراهيمية، وأسندت إليهما مهمة الدورية الليلية، في بداية عملهما، مما أصاب «ألبرت» بالسخط الشديد، الذي عبَّر عنه، قائلًا في حنق:

ـ ولماذا نحن؟!.... هل فرغت الدوريات من الإسكندرية، وكانوا في انتظارنا؛ لنقوم بها؟!...

أطلق «جون» ضحكة صافية، قائلًا:

ـ يا لك من جاحد!.... ألا تشعر أننا محظوظون، لننال فرصة التمتع بليل الإسكندرية؟!...

تلفَّت «ألبرت» حوله في عصبية، وهو يقول:

ـ ليل الإسكندرية، أم خناجر سكانها، الذين لم يكتفوا بصيد البحر، فخرجوا لاصطيادنا في البر!

مال عليه «جون»، قائلًا بابتسامة مرحة:

ـ لو أنك في مكانهم لفعلت مثلما يفعلون... تصوَّر أن يأتي الأتراك مثلًا لاحتلال لندن... هل كنت ستتركهم يسيرون في طرقاتها في أمان؟!..

همهم «ألبرت» بكلمات غاضبة غير مفهومة، فاعتدل «جون»، قائلًا، دون أن تفارقه ابتسامته:

ـ أرأيت؟!..

عاد «ألبرت» يهمهم همهماته غير المفهومة، فأطلق «جون» ضحكة أخرى صافية، وراح يستنشق هواء الإسكندرية في انتعاش، وهو يسير معه في طرقاتها....

والواقع أن مظهره قد أثار دهشة، وربما استياء الناس في شوارع المدينة الساحلية الجميلة؛ فقد كان يسير مبتسمًا، متنعشًا، كأنه يستمتع بكل لحظة يقضيها...

ومن الطبيعي أن يستفزَّ هذا تلك الفئة، التي قررت التصدي للمحتلين، وعلى رأسهم الشيخ ناصر، الذي مطَّ شفتيه في غضب، عندما وقع بصره على ابتسامة «جون»، فانحرف عن الطريق، ودخل شارعًا جانبيًّا ضيقًا، ودقَّ بابه ثلاث دقات، وانتظر لحظة، حتى سمع دقة واحدة من الداخل، فعاد يدق الباب ثلاث دقات أخرى، ثم انتظر...

مضت دقيقة، قبل أن ينفتح الباب في بطء، ويُطل من خلفه وجه شاب في عنفوان الشباب، غمغم في قوة:

ـ زيارة ليلية مفاجئة يا شيخ ناصر.

قال الشيخ ناصر في توتر غاضب واضح:

ـ في شارعنا غراب يُغنِّي.

بدت دهشة مستنكرة على الشاب، وهو يغمغم:

ـ يُغنِّي؟!...

ثم انقلبت سحنته إلى صرامة شديدة، مضيفًا:

ـ لا بد أن نُخرسه؛ حتى لا يُزعج النيام.

أغلق الباب، دون أن يدعو الشيخ للدخول، ومضت دقيقة، قبل أن يفتحه ثانية، ويخرج وبصحبته شابان آخران أصغر سنًّا، تشف ملامحهما على أنهما شقيقاه، وقال هو في حزم:

ـ أين ذلك الغراب بالضبط يا شيخ ناصر؟!..

أجابه الشيخ في حزم:

ـ سأقودكم إليه.

والتفت ليتقدمهم، ثم انتبه إلى شيء ما، فعاد يلتفت إليهم، مضيفًا:

ـ إنهما غرابان.

أجابه الشاب في حزم، وهو يتحسس خنجره، المختفي تحت ثيابه:

ـ ونحن ثلاثة أسود.

ابتسم الشيخ، وغمغم:

ـ على بركة الله.

لم يكن «جون» أو «ألبرت» يدريان شيئًا عن هذا، وهما يواصلان سيرهما في شوارع الإسكندرية، التي تمتَّعت، في تلك الفترة من العام، بنسيم عليل نظيف، وإن لم يفارق «ألبرت» خوفه، ولم يتوقَّف «جون» عن الاستمتاع بكل ما حوله، و.....

وفجأة وقع بصره عليها....

حسناء شابة، ترتدي زيًا أسود، وبرقعًا شبكيًا، يُخفي وجهها، من أسفل عينيها، وينسدل على صدرها....

وفي اللحظة التي وقع بصره فيها عليها، كانت تسبل جفنيها في حياء، وتختلس نظرة سريعة إليهما....

وفي تلك اللحظة القصيرة، التقت عيناه الزرقاوان، بعينيها السوداوين الواسعتين....

ومع التقائهما، خفق قلبه....

بل انتفض....

انتفض كطائر مذعور، داخل قفصه الصدري....

كان، ومنذ حداثته، لا يؤمن أبدًا بذلك الحب الرومانسي، الذي يقرأ عنه في روايات «ديكنز»، والذي يحدث من أول نظرة....

كان يراه أمرًا عبثيًا، هزليًا، خياليًا، غير قابل للحدوث، إلا بين مراهقَين، يفتقران إلى العقل والحكمة....

ولكنه رأى عينيها لحظة...

فقط لحظة....

وانتفض قلبه....

وانتفض...

وانتفض....

ودون وعي منه، اتجه نحوها، متخليًا عن مساره الرسمي، فهتف به «ألبرت» في ذعر:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟!.... ألم تؤكد الأوامر ألا نخرج عن مسارنا أبدًا؟!...

لم يبدُ أن «جون» قد سمعه، وهو يُغمغم مبهورًا:

- إنها ساحرة...

غمغم «ألبرت» في دهشة:

- مَنْ تلك؟!...

أجابه، وهو يواصل اتجاهه نحوها كالمأخوذ:

- هي..

انتبهت الفتاة إلى اتجاهه نحوها، فزادت من سرعتها في خوف، مما جعله يزيد من سرعته بدوره، وهو يهتف بها:

- ساحرة الإسكندرية.... انتظري.

لم تفهم الفتاة ما يقول، فأسرعت الخُطى، ودق قلبها في عنف، وراحت تعدو مذعورة، و«ألبرت» يهتف مختنقًا، غلبه الرعب:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟!.... أنسيت ما أخبرونا به.... إياك ونساءهم.... إياك..

فوجئت الفتاة المرتاعة بأن الطريق الذي تنطلق عبره مسدود، فشهقت في ذعر، ثم استدارت تواجه «جون»، الذي كان يعدو بدوره نحوها....

ولما لم تكن تحمل ما تدافع به عن نفسها، فقد شهرت السلاح الوحيد الذي تملكه....

أظافرها....

اتخذت وقفة أشبه بهِرة مذعورة، وهي ترفع كفيها على جانبيها، وتصوِّب أظافرها نحوه، في مزيج من الخوف والتحفُّز، وما إن رأى هو هذا، حتى توقف لاهثًا، وغمغم في خفوت، أراد أن يبثَّ فيه أكبر قدر من المودة:

ـ معذرة... لم أقصد إخافتك..

ظلَّت على وقفتها الخائفة المتحفِّزة، فتوقَّف هو يتطلَّع إليها، وهو يلهث، من فرط الانفعال والانبهار، ثم لم يلبث أن أشار إلى صدره، متمتمًا:

ـ «إدوارد».... اسمي «جون إدوارد».

بقيت الفتاة على وقفتها المتحفِّزة، فخفض سلاحه إلى جانبه؛ ليرسل إليها رسالة اطمئنان، وكرر في صوت خافت، ولهجة أشبه بالضراعة:

ـ اسمي «جون إدوارد».... وأنتِ؟!..

شيء ما في عينيه، جعلها تدرك أنه لا يقصد بها شرًّا، فحافظت على وقفتها المتحفِّزة لحظة، ثم همست:

ـ زينب.

خفق قلبه بشدة، وردد كالولهان:

ـ زينب.... لا ريب في أن هذا يعني الجمال والفتنة في لغتكم.

لم تفهم قوله، فرددت في اضطراب:

ـ زينب...

ارتفع حاجباه في تأثر واضح، وغمغم في هيام مبالغ:

ـ هل لي أن أرى وجهك؟!..

لم تفهم أيضًا قوله، ولكنها تراجعت أمامه في خوف، وأشهرت أظافرها مرة أخرى، في نفس اللحظة التي وصل فيها «ألبرت»، وهو يقول، في اضطراب شديد:

ـ «جون» أرجوك..... إنك بهذا تُعرِّض حياتنا للخطر.

لم يبدُ أن «جون» قد سمعه حتى، وهو يركع أمام زينب، قائلًا في ضراعة:

ـ أرجوك.

تراجعت زينب أكثر، في نفس اللحظة التي انبعث فيها من خلفه صوت غاضب، يقول بإنجليزية ركيكة:

ـ إياك ونساءنا أيها الوغد.

التفت «ألبرت» إلى مصدر الصوت، أولًا، وشهر بندقيته، وهو يطلق شهقة رعب مختنقة، ولكن الشاب السكندري كان الأسرع؛ إذ وثب نحوه في خفة مدهشة، وغاص نصل خنجره في قلبه مباشرة...

وأطلق «ألبرت» شهقة أخرى...

وأخيرة...

وبعينين بلغتا أقصى اتساعهما، وامتزج فيهما الرعب بالألم، سقط على ركبتيه، وخرجت من حلقه حشرجة، في نفس اللحظة التي صرخت فيها زينب، والتفت فيها «جون»، يواجه الشباب الثلاثة....

كان السكندريون الثلاثة يحاصرونه بخناجرهم، والغضب والمقت يملآن عيونهم، والشيخ ناصر من خلفهم يصرخ:

- اذبحوا الغراب الثاني.... لا نريد غربان بريطانيا على أرضنا... اذبحوه بلا رحمة..

صرخت زينب مرة أخرى، وتراجعت مذعورة، حتى التصقت بالجدار، في حين رفع «جون» بندقيته في يأس، مدركًا أنها عاجزة عن حمايته، من هذا الهجوم العنيف، وصرخ الشيخ ناصر، بكل ما يملك من قوة وغضب:

- اذبحوه.

ووثب الشبان الأقوياء الثلاثة نحو «جون»، و....

وفجأة، تألَّقت القلادة المعلَّقة في عنقه.....

لم تر زينب، وهي ملتصقة بالجدار، ماذا أطلقت القلادة بالضبط، ولكنها شاهدت الشبان الثلاثة يتراجعون في ذعر مفاجئ، ويسقط أحدهم أرضًا من هول الموقف، في حين تراجع الشيخ ناصر في رعب هائل، وهو يردد:

- سلام قولًا من رب رحيم.... سلام قولًا من رب رحيم.

ثم دار على عقبيه، وانطلق يعدو بكل قوته، ثم لم يلبث الشبان الثلاثة أن تبعوه، وهم يطلقون شهقات عجيبة، جعلت زينب تصرخ بدورها....

وتصرخ...

وتصرخ....

صراخها انتزع «جون» من ذهوله، فالتفت إليها في سرعة، وهو يقول:

- أرجوك... لا تفزعي.

لثانية واحدة، بدت لها تلك القلادة، وكأنها جزء من الجحيم، ثم لم تلبث أن خبت في سرعة، وتلاشى معها ذلك الشعور بالخوف، و«جون» يقترب منها في حذر، قائلًا:

- لن أؤذيكِ.... لن أفكر حتى في هذا.... صدقيني.

التصقت أكثر بالجدار، وحدَّقت فيه في رعب، فعاد يركع أمامها، قائلًا، وهو يشير إلى ذلك البرقع، الذي يغطي وجهها:

- هل لي في رؤية جمالك الفتان؟!...

تردَّدت زينب لحظة، ثم اشترك الخوف مع الفضول والرهبة، في اتخاذها لقرار، كان من المستحيل أن تتخذه، في أية ظروف أخرى...

لقد مدت يدها في بطء، وكشفت وجهها.....

وخفق قلب «جون»، كما لم يخفق من قبل قط...

لقد رأى أمامه نموذجًا مجسمًا للفتنة والجمال والحياء....

وبكل الانبهار في أعماقه، غمغم:

- رباه!... أنتِ أجمل من «فينوس» نفسها...

حدَّقت فيه زينب، دون أن تجيب....

كان شديد الوسامة بحق، وملامحه أشبه بالملائكة، التي يرسمونها في الكنائس، وعيناه الزرقاوان بدتا أشبه ببحر صافٍ، حتى إن لمحة من قلبها شعرت بالإشفاق عليه، والميل إليه...

ولكنها قاومت تلك اللمحة في صرامة...

إنه أجنبي...

ومحتل....

وهذا لا يجوز....

أبدًا.....

اعتدلت بحركة صارمة مباغتة، وعادت تسدل بُرقعها على وجهها، فأطلق هو شهقة لوعة، وهتف في أسى:

- لماذا؟!...

تحرَّكت لتتجاوزه، وقد غلبت مصريتها خوفها، فأسرعت يده تمسك يدها، وهو يقول في ضراعة:

- أرجوك...

انتفضت للمسته، وجذبت يدها من يده في غضب، فرسم الألم ملامحه على وجهه، وهو يقول:

- معذرة.... لم أقصد.

اندفعت مبتعدة، فهتف بها:

- أرجوك.

التفتت إليه بحركة غريزية، فأسرع يخلع قلادته، ويناولها لها، قائلًا في صوت خافت معذب:

- ستحميك.

ترددت زينب، ولكنه وضع القلادة في يده، وهو يكرر:

- لست أدري كيف.... ولكن صدقيني.... ستحميك..

واصلت ترددها لحظة، ثم لم تلبث أن أطبقت أصابعها على القلادة، التي بدت لها باردة كالثلج، واندفعت تبتعد عن المكان، في حين وقف هو يتابعها ببصره في مرارة، وهو يتمتم بكل الحزن:

- وداعًا..... وداعًا يا «فينوس الإسكندرية».... وداعًا.

مع نهاية قوله، برز الشيخ ناصر والشبان الثلاثة، عند بداية الطريق، وقال الأول في عصبية واضحة:

- الموت للشيطان.

واندفع الثلاثة مرة أخرى نحو «جون»....

والعجيب أنه، في هذه المرة لم يقاومهم....

أبدًا.

الفصل السابع

- زينب.... أين أنت؟!...

عقدت زينب حاجبيها، عندما سمعت نداء أمها، وتسارعت أصابعها على أزرار جهاز الكمبيوتر الخاص بها، وهي تقول:

- لحظات يا أمي.... سأنهي هذه المحادثة أولًا.

هزّت الأم رأسها في يأس، وهي تضع آخر الأطباق على المائدة، قائلة:

- يا للكمبيوتر... هذه المبتكرات الحديثة أفسدت هذا الجيل.... لقد انعزلوا تمامًا عن الحياة الاجتماعية، وصارت علاقاتهم كلها رقمية...

ابتسم والد زينب، وهو يقول في حنان:

- هذه سمة العصر... نحن في القرن الحادي والعشرين، ولكل عصر أوانه..

غمغمت في سخط، وهي تتخذ مجلسها على المائدة:

- يمكنك أن تطلق عليه اسم «عصر التباعد الرقمي».

أطلق والد زينب ضحكة قصيرة، في حين هتفت أمها، في شيء من نفاد الصبر:

- الطعام سيبرد.

اندفعت زينب من حجرتها، وكأنها تهم باللحاق بقطار منطلق، وهي تهتف:

- هأنذا.

وثبت إلى مقعدها، وراحت تلتهم طعامها في سرعة، فهتفت بها أمها:

- رويدك... سيؤلم هذا معدتك.

لوَّحت بيدها، دون أن تنظر إلى أمها، قائلة:

- لقد اعتدت هذا.

ابتسم والدها مشفقًا، وهو يقول:

- المفترض أنك طبيبة، وتدركين مضار عدم مضغ الطعام.

قالت في مرح:

- الأهم أنني خطيبة، وأدرك مضار التأخر على موعد خطيبي.

قالت أمها في تبرُّم:

- أنتِ تتأخرين دومًا، وعاصم يتجاوز عن هذا.

هتفت في زهو:

- لأنه يحبني.

مال والدها نحوها، وسألها في هدوء:

- السؤال الأهم هو: هل تحبينه أنت؟!...

توقَّفت زينب عن الأكل دفعة واحدة، واعتدلت في مجلسها، وبدت شاردة لحظة، قبل أن تغمغم:

- إنه يناسبني.

شعرت بأن لهجتها المتخاذلة لم تنجح حتى في إقناعها شخصيًّا، في حين غمغمت أمها بغير رضا:

- ألأنه مهندس إلكترونيات؟!..

رفعت زينب عينيها إليها، وبدت لحظة وكأنها لا تمتلك جوابًا، ثم لم تلبث أن أجابت، في تردد واضح:

- إنه وسيم... من عائلة معروفة، ثري، شديد الذكاء، و....

قاطعها والدها في حزم:

- وهل تحبينه؟!..

بدت عليها حيرة عجيبة، استغرقت بضع لحظات، قبل أن تقول في شيء من العصبية:

- ليس هذا ضروريًّا... الزواج يُبنى على التوافق، وليس على الحب.

غمغمت والدتها في دهشة:

- أهذا ما فعله بكم العصر الرقمي؟!..

نهضت زينب، قائلة في توتر:

- أظن أنه قد حان الوقت لأنصرف.

مسحت يديها بمنشفة المائدة في عجالة، ثم اندفعت نحو الباب، فهتف بها والدها، قبل أن تغلقه خلفها:

- أبلغي عاصم تحياتي.

غمغمت الأم بعد انصرافها، في قلق ولوعة:

- لست أشعر بالارتياح!

أشار إليها الأب، قائلًا:

- دعيها تخوض التجربة إلى نهايتها.... هذه هي الوسيلة الوحيدة لإدراك ماهية الحياة.

مطَّت شفتيها، قائلة في حنق:

- يدهشني برودك هذا.

ابتسم ابتسامة حزينة، وهو يقول:

- ربما كنت أكثر قلقًا منك، ولكنني واقعي، ولا أرغب في لعب دور «دون كيشوت»، ومحاربة طواحين الهواء.

تطلَّعت إليه لحظة في دهشة، ثم هزَّت رأسها في قوة، مغمغمة في سخط:

- يا لهذا العصر الرقمي!!

«هذا ما تردده أمي دومًا...»...

قالتها زينب في سخط، وهي تسير مع خطيبها عاصم، بمحاذاة كورنيش النيل، فابتسم وهو يربت على كفها، التي تتأبط ذراعه، قائلًا:

- ليس من السهل على الجيل السابق استيعاب ذلك السيل الرقمي المنهمر، من تكنولوجيا القرن الحادي والعشرين... إنهم يخشونه، ويتعاملون معه بعدوانية، مبعثها الخوف وصعوبة الفهم.

قالت في غضب:

- وما ذنب جيلنا في هذا؟!..

ضحك، قائلًا:

- وما ذنبهم، في سرعة التغيرات في هذا العصر؟!

تطلَّعت إليه لحظات في صمت، قبل أن تقول في حنان:

- أنت عاقل جدًّا يا عاصم.

داعب ذقنها، وهو يقول:

- وأنت متهورة جدًّا يا حبيبتي.

احتضنت ذراعه، وضمتها إليها في ارتياح، وهي تطرح على نفسها ذلك السؤال، الذي ألقاه عليها والدها....

هل تحبه؟!...

إنها تشعر بارتياح شديد إلى جواره، وبأمان بالغ، كلما تأبطت ذراعه...

أهذا هو الحب؟!...

لماذا تشعر دومًا إذن أن هناك ما ينقص علاقتهما؟!...

لماذا؟!...

لماذا؟!...

أهو ذلك التمرد الدائم في أعماقها؟!...

أم أنها روح المغامرة، التي تعجز عن إشباعها معه؟!..

أم أنها باردة المشاعر، كما تصفها صديقاتها؟!...

إنه شاب رائع من كل الوجوه....

شاب تتمناه أية فتاة في موضعها...

أو أية فتاة على الإطلاق...

فلماذا هذا الشعور الناقص؟!...

لماذا؟!..

راحا يسيران بمحاذاة النيل بلا هدى، والأحاديث تنقلهما، في عشوائية تامة، من موضوع إلى آخر، و...

- يا لطيور الحب الجميلة!...

انبعث ذلك الصوت الخشن الغليظ فجأة؛ لينتزعهما من حديثهما

فالتفتا إلى موضعه في حركة واحدة، واتسعت عينا زينب في خوف، وهي تحدِّق في ثلاثة وجوه مخيفة، لثلاثة شبان، تبدو على ملامحهم علامات إجرام واضحة، وتعلَّقت أكثر بذراع عاصم، الذي بدا أكثر تماسكًا، وهو يقول في توتر:

- ماذا تريدون؟!..

هزَّ أحدهم كتفيه، قائلًا في سخرية:

- بدءًا.... ساعتك، وحافظة نقودك، وهاتفك المحمول.

شعرت زينب بعضلات عاصم تتحفز، قبل حتى أن يضيف الثاني:

- ثم تلك الحسناء، التي لا تناسبك.

وأطلق الثالث ضحكة قميئة، مكملًا:

- ستقضي معنا ليلة، لن تنساها أبدًا..

انتفض جسد زينب في رعب، في حين بدا لها عاصم صلبًا غاضبًا، وهو يقول:

- محال.

شهر ثلاثتهم مُدى حادة في وجهيهما، والأول يقول في شراسة:

- سيحدث هذا بإرادتك، أو على جثتك.

تحفَّزت عضلات عاصم أكثر، ثم أبعد يد زينب عنه، وقال لها في حزم:

- ابتعدي..... ابتعدي بأقصى سُرعتك.

ولكنَّ الشبان الثلاثة انقضوا فجأة، بكل وحشية الدنيا...

وصرخت زينب...

وصرخت...

وصرخت...

وتألَّقت تلك القلادة القديمة، المعلَّقة في عنقها...

تألَّقت على نحو واضح لمحه عاصم من مكانه، وشعر في نفس اللحظة بهاتفه المحمول يرتج في حزامه بقوة...

أما الشبان الثلاثة فقد أصابهم ذلك التألق بحالة مختلفة تمامًا...

لقد صرخ أحدهم صرخة رُعب هائلة، وسقطت مديته من يده، وتراجع الثاني وهو يُطلق شهقات متتالية مذعورة، أما الثالث، فقد سقط أرضًا، وراح يزحف إلى الخلف، وهو يحمي وجهه بيديه، مطلقًا صرخات متقطعة قصيرة، ويبكي في انهيار، هاتفًا:

- لن أفعلها مرة أخرى.... أقسم إنني لن أفعلها ثانية.

اتسعت عينا زينب في دهشة بالغة، في حين انعقد حاجبا عاصم، والتفت في حركة حادة إلى تلك القلادة المتألِّقة، في عنق زينب، في نفس الوقت الذي تحسس فيه هاتفه، الذي لم يتوقف عن الارتجاج في عنف غير طبيعي...

وبصعوبة، استطاع الشبان الثلاثة أن ينطلقوا هاربين، تاركين المُدى خلفهم...

وعندئذ.... عندئذ فقط، خبا تألُّق القلادة... وتوقفت ارتجاجات الهاتف المحمول....

وفي حركة سريعة، وعلى الرغم من غرابة الموقف كله، انتزع عاصم هاتفه المحمول من حزامه، وألقى نظرة على شاشته...

وكان ما توقعه صحيحًا...

الشاشة كانت مضطربة على نحو عجيب، وكأنها قد تعرَّضت لمجال كهرومغناطيسي شديد القوة...

وفي انفعال شديد، هتف في خطيبته:

- دعيني أرى هاتفك المحمول.

حدَّقت فيه بدهشة بالغة، وهي تتساءل عما أصابه، فكرر في انفعال أكثر:

- هاتفك.

فتحت حقيبتها في اضطراب، وناولته هاتفها، وهي تتساءل عما أصابه...

بل عن كل ما يحدث...

وفي لهفة لم تفهمها، تطلَّع عاصم إلى شاشة هاتفها، ثم بدت منه آهة عجيبة، اختلطت بابتسامة ظافرة، رسمت نفسها على شفتيه في سعادة، وهنا لم تتمالك نفسها، فهتفت به في غضب:

- ألم تُدرك بعد ما مررنا به؟!..

رفع عينيه إليها، وهو يهتف في حماس استفزها:

ـ بالتأكيد.

صرخت فيه غاضبة:

ـ لقد تعرضنا لمحاولة سرقة، وشروع في اختطاف واغتصاب، ولست أرى، في أي من هذا، سببًا لحماسك السخيف، وكأنك في عالم آخر..

استفزَّها أكثر، بتجاهله التام لعبارتها، وهو يسألها في لهفة:

ـ من أين حصلت على قلادتك هذه؟!...

عاد يكرر في لهفة أكثر:

ـ من أين حصلت عليها؟!..

أجابته في غضب:

ـ إنها تميمة قديمة، كانت ملكًا لجدة أمي، التي أسموني على اسمها.... يقولون إنها تجلب الحظ، و....

قاطعها في انفعال ملهوف:

ـ والحماية.

نظرت إليه في دهشة، مغمغمة:

ـ كيف علمت؟!..

مرة أخرى، تجاهل قولها تمامًا، وهو يقول، وقد بلغت لهفته منتهاها:

ـ هل يمكنني أن أراها؟!..

كان يمد لها يدًا مرتجفة، من فرط الانفعال، فحدَّقت فيها في دهشة، قبل أن يغلبها عنادها، فتقول في حدة:

ـ لا.

قال في ضراعة، امتزجت بلهفة شديدة:

ـ أرجوك.

هتفت في حدة أكثر:

ـ لا.

ثم عقدت ساعديها أمام صدرها، مستطردة في حدة:

ـ أريد أن أعود إلى البيت.

أجابها بنفس اللهفة:

ـ فليكن.... ولكن دعيني أراها أولًا.

تضاعف غضبها مع دهشتها، وقالت في عناد شديد:

ـ إما أن نعود إلى البيت الآن، وإما أن أرحل وحدي.

تلاشت لهفته دفعة واحدة، مع ذلك اليأس الذي ملأ ملامحه، وهو يقول:

ـ فليكن يا زينب.... سنعود.

لم يتبادلا كلمة واحدة، طوال طريق العودة إلى منزلها...

كانت غاضبة من ردة فعله، وكان هو منشغلًا في البحث عن تفسير لتلك الظاهرة الخارقة، التي رآها منذ قليل....

تلك القلادة العجيبة، التي ترتديها دومًا، والتي لم يهتم بها كثيرًا من قبل، تألَّقت فجأة، في لحظة الخطر، وانطلقت منها موجة كهرومغناطيسية بالغة الشدة، أفسدت هاتفه وهاتفها معًا، وأثارت الشبان الثلاثة إلى درجة الجنون، وكأنهم قد شاهدوا أشباح الدنيا كلها تنقض عليهم...

فما سر تلك القلادة؟!...

أو ما سر تلك التميمة، كما أطلقت زينب عليها؟!...

راح عقله يبحث وسط ما تعلمه عن تفسير، إلا أنه عجز عن هذا تمامًا، خاصة أن تلك التميمة هي إرث قديم، من جدة أم زينب، ولا أحد يدري كيف حصلت عليها، ولكن من المؤكد أن هذا كان في زمن لم يعرف التكنولوجيا بعد...

فكيف؟!..

كيف؟!..

كيف؟!..

انشغل عقله بهذا، حتى وصلا إلى منزل زينب، التي تضاعف حنقها وغضبها، عندما صافحها عاصم، دون أن يرفع عينه عن تميمتها، فقالت في حدة:

ـ لن تراها.

مطَّ شفتيه في أسف، وهو يقول:

ـ هذه التميمة تحوي سرًّا ما، أنقذنا من ذلك الموقف السخيف، الذي وجدنا أنفسنا فيه.

قالت في حدة أكثر:

ـ فليكن.

ثم استدارت، واندفعت نحو منزلها في غضب، فتوقف هو بضع لحظات في يأس، قبل أن ينطلق عائدًا إلى منزله....

وإلى جهاز الكمبيوتر مباشرة....

كان يبحث عن شدة المجال الكهرومغناطيسي، الكافي لإتلاف أجهزة الهواتف المحمولة مؤقتًا....

ولم يدهشه ما وجده...

كان هذا يحتاج إلى مجال كهرومغناطيسي بالغ الشدة....

مجال يستحيل إنتاجه، من خلال شيء في هذا الحجم...

ثم ماذا أصاب الشبان الثلاثة؟!...

ولماذا لم يصبه هو وزينب؟!...

لقد شعر بحماسة شديدة، وأصيب الثلاثة برعب هائل، وحتى المجال الكهرومغناطيسي بالغ الشدة، لا يمكنه أن يصنع هذا....

طال بحثه، حتى أشرقت الشمس، دون أن يجد جوابًا شافيًا....

لقد ظلت تلك التميمة غامضة...

للغاية...

وصل إلى عمله، في مركز البحوث، مرهقًا على نحو واضح، مما أثار قلق زميله ممدوح، الذي سأله:

ـ عاصم.... أأنت مريض؟!...

هزَّ عاصم رأسه نفيًا، وأجاب:

ـ مُرهقٌ فحسب.

عاد يسأله في قلق:

ـ ولماذا؟!..

أشار عاصم بيده، مغمغمًا:

ـ أمرٌ ما شغل عقلي، ومنعني من النوم أمس.

مال عليه ممدوح، يسأله هامسًا:

ـ خلاف مع زينب؟

ابتسم عاصم ابتسامة باهتة، وهو يُغمغم:

ـ هذا لن يمنعني من النوم.

تراجع ممدوح، متسائلًا في حَيرة:

ـ ماذا إذن؟!..

التقط عاصم ورقة، وخط عليها بضعة أرقام، ثم دفعها نحو ممدوح، وهو يسأله:

ـ كيف يمكننا إنتاج مجال كهرومغناطيسي بهذه الشدة؟!...

ارتفع حاجبا ممدوح في دهشة، وهو يقرأ الأرقام، قائلًا:

ـ رباه... هذا يحتاج إلى آلة عملاقة، وطاقة تكفي لإنارة نصف القاهرة...

غمغم عاصم، وهو يسحب الورقة ويمزِّقها:

ـ هذا ما توقَّعته.

حدَّق فيه ممدوح لحظات في دهشة، قبل أن يسأله:

ـ أهذا ما منعك من النوم أمس؟!..

هزَّ عاصم كتفيه، قائلًا:

ـ جزء منه.

تراجع ممدوح متطلِّعًا إليه، ثم هزَّ رأسه، وقال:

ـ هل تريد نصيحتي يا عاصم؟!..

غمغم عاصم:

ـ تفضَّل.

عاد يميل نحوه، قائلًا:

ـ تزوَّج....

«أية نصيحة حمقاء هذه؟!...»...

هتفت زينب بالعبارة في استنكار، في وجه زميلتها يارا، التي ابتسمت وهي تضع سماعتها الطبية على المنضدة، قائلة:

ـ صدقيني يا زينب.... الزواج ينهي كل هذه المشكلات البسيطة.

قالت في حدة:

ـ ليست بسيطة.

أشارت إليها يارا، قائلة:

ـ إنها تبدو كذلك؛ لأن كلًّا منكما يعود إلى منزله في آخر الليل، ولكن عندما يجمعكما منزل واحد، وفراش واحد، ستختلف الأمور كثيرًا.

تراجعت زينب مفكرة فيما قالته يارا...

لقد كانت بالفعل شديدة الحدة مع عاصم أمس....

ذلك الموقف الذي تعرَّضا له أمس، وانفعاله العجيب معه، كلها عوامل أضيفت إلى توترها الطبيعي؛ لجعلها تنفعل على هذا النحو...

ثم إنها لم تفهم بعد، لماذا أثارت تميمتها اهتمامه على هذا النحو؟!...

لقد كان هذا تصرفًا عجيبًا!!..

ولكنَّ عاصم مهندس عبقري...

وعاقل...

ورصين...

ثم إنه، وقبل أن يصيب الشبان ما أصابهم، كان مستعدًا للدفاع عنها...

لقد طلب منها الابتعاد....

وتحفَّزت عضلاته....

وكان مستعدًا لمواجهة ثلاثة شبان مسلحين للدفاع عنها...

يا إلهي.... كم كان شهمًا وقويًّا...

خفق قلبها، وهي تستعيد تلك اللحظات، ورفعت يدها تمسك تميمتها في وله...

إنها دومًا باردة كالثلج، وذات ملمس عجيب، و...

فجأة، استعادت ذاكرتها تلك اللحظة، التي تألَّقت فيها قلادتها، فأبعدت يدها عنها بحركة حادة، وهتفت:

ـ لهذا.

اندهشت يارا لما فعلته، فسألتها في قلق:

ـ ماذا هناك؟!..

رفعت زينب سبَّابتها، وهي تقول في حماس:

ـ لهذا جذبت التميمة انتباهه... إنه مهندس رقميات، وما حدث حتمًا يُعدُّ ظاهرة عجيبة!...

سألتها يارا في دهشة:

ـ وماذا حدث؟!...

مالت نحوها، مستطردة بنفس الحماس:

ـ التميمة لم تفعل هذا قط... جدة أمي كانت تقول إنها تحمي من ترتديها، ولكن طوال ما يقرب من قرن أو أكثر من الزمان، لم تُبدِ أي شيء... حتى ليلة أمس.

زفرت يارا، قائلة:

ـ ما زلت أجهل ماذا حدث أمس.

هبَّت زينب من مقعدها، وخلعت معطفها الطبي، وألقته على المقعد، وهي تختطف حقيبتها، قائلة في انفعال:

ـ أعتقد أنني أدين لـعاصم باعتذار كبير.

هتفت يارا بكل الدهشة:

ـ الآن؟!..

أطلقت زينب ضحكة كبيرة، وهي تقول:

ـ ولماذا إضاعة الوقت؟!..

قالتها واندفعت مغادرة المكان، وهي تهتف:

ـ يارا... افحصي مرضاي اليوم... أنت تدينين لي بهذا.

ارتفع حاجبا يارا في دهشة، دون تعليق...

لم يكن هناك ما يمكنها أن تقوله...

ولم يكن من الممكن أن تدرك، ما الذي يعنيه هذا...

فذلك الموقف، كان البداية لكشف ذلك السر، الذي بقي خفيًا لملايين السنين...

سر تلك التميمة...

الغامضة...

للغاية...

الفصل الثامن

على الرغم من انهماكه في عمله، أو محاولته هذا، لم يستطع عاصم طرح فكرة تلك التميمة عن ذهنه قط...

كانت ظاهرة، يستحيل أن يواجهها المرء سوى مرة واحدة، في عمره كله...

هذا إذا كان محظوظًا...

وللغاية...

ولأن الأمر سيطر على تفكيره تمامًا، انتقل إلى جهاز الكمبيوتر، وغاص مرة أخرى في شبكة الإنترنت؛ بحثًا عن جواب...

أي جواب...

ولقد انهمك كثيرًا في البحث، حتى فوجئ بصوت زينب من خلفه، وهي تهمس في خجل:

-هل سيعطلك وجودي؟!..

نطقت سؤالها بمنتهى الرقة، وبصوت هامس، وعلى الرغم من هذا، فقد انتفض في قوة، إلى حد أنه كاد يسقط من مقعده، لولا أسرعت هي بالتقاط يده، قائلة في خجل ولوعة:

ـ هل أفزعتك؟!...

حدَّق في وجهها بدهشة، هاتفًا:

ـ زينب... ماذا تفعلين هنا؟!..

سمع ضحكة زميله ممدوح، وهو يقول:

ـ أهذا ما يقوله خطيب لخطيبته؟!...

ابتسمت زينب في خجل، في حين ظل عاصم يحدِّق فيها في دهشة، قبل أن يستطرد ممدوح:

ـ أنا أعطيتهم الإذن بدخولها... وبالمناسبة... تذكرت أمرًا هامًّا، يستدعي خروجي من هنا...

وعند الباب توقف، وغمز بعينه، متسائلًا:

ـ أنصف الساعة يكفي؟

خفضت زينب عينها، مبتسمة في حياء، في حين غمغم عاصم، محاولًا انتزاع نفسه من انفعاله:

ـ بالكاد.

غادر ممدوح المعمل، وأغلق بابه خلفه، ومضت لحظات من الصمت، وكلاهما يتطلَّع إلى وجه الآخر، قبل أن تغمغم زينب:

ـ أما زلت غاضبًا مني؟!..

التقط نفسًا عميقًا، قبل أن يقول في حب:

ـ لست أذكر أنني قد غضبت منك يومًا.

ابتسمت في سعادة، ومد هو يديه في حذر، يلتقط كفيها الصغيرتين، وهو يتطلَّع إلى عينيها....

وعاشا لحظة صمت أخرى، قبل أن تسحب هي يدها من كفيه في رفق، ثم ترفعهما إلى عنقها، قائلة بابتسامة رقيقة:

ـ أما زلت ترغب في فحصها؟!..

لم يصدق نفسه، وهو يقول في لهفة:

ـ وبشدة.

خلعت قلادتها في رقة، وناولته إياها، فأسرعت أصابعه تلتقطها بمنتهى اللهفة، و...

وانتفض جسده مرة أخرى...

أي ملمس هذا؟!..

إنها شديدة النعومة، وشديدة البرودة، وكأنها كانت داخل براد قوي... وفي دهشة أكبر، راح يقلبها بين أصابعه...

وعلى الرغم من علمه وخبراته، لم يستطع تحديد ذلك المعدِن، الذي صنعت منه، ولا طبيعة تلك الأحجار الصغيرة، التي تصنع سلسلتها...

كل شيء في تلك التميمة كان عجيبًا...

غريبًا...

مدهشًا....

وغير مألوف....

وبدون أن يتبادل مع زينب كلمة إضافية، نقل عاصم التميمة إلى جهاز خاص، ضغط أزراره في لهفة، ثم تعلَّق بصره بشاشته في ترقب شديد...

مضت ثوانٍ قليلة، ثم حملت شاشة الجهاز عبارة مدهشة...

«معدن غير معروف»...

ارتفع حاجباه، واتسعت عيناه عن آخرهما، في حين غمغمت زينب في دهشة:

- ما الذي يعنيه هذا؟!..

أشار بسبابة مرتجفة إلى الجهاز، وهو يقول بصوت أكثر ارتجافًا، من فرط الانفعال:

- هذا الجهاز به مقياس طيفي شديد الدقة، قادر على تعرف كل معدن معروف على وجه الأرض، وكل معدن يحويه الجدول الدوري الحديث.... وقادر حتى على تحديد هوية أية سبيكة، مهما بلغ تعقيدها...

ثم التفت إليها بوجه محتقن، وهو يضيف، في انفعال أكبر:

- وعلى الرغم من هذا، فقد عجز تمامًا عن تحديد نوع مادة هذه التميمة..

عادت تكرر، في حيرة انضم إليها خوف مبهم:

- وما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟!..

استعاد التميمة، وأمسكها بيده في قوة؛ ليشعر ببرودتها العجيبة، وهو يسألها في اهتمام:

- من أين أتت هذه التميمة؟!..

أجابته في دهشة:

- أخبرتك أنها كانت تخص جدة أمي، و...

قاطعها في لهفة:

- ومن أين حصلت هي عليها؟!..

هزَّت كتفيها، قائلة في توتر:

- هناك قصة ترويها، ولكنها ليست...

عاد يقاطعها، في شيء من الحدة:

- من أين حصلت عليها؟!...

انعقد حاجباها في ضيق؛ لأن هذا لم يكن ما توقعته، عندما أتت لزيارته في عمله، ولكنها أجابت في عصبية:

- أعطاها إياها جندي بريطاني، تروي عنه قصة عجيبة..

سألها بمنتهى اللهفة:

- أية قصة؟..

التقطت نفسًا عميقًا متوترًا، وأجابته:

- تقول إن أهل حيِّها قتلوا صديقه، ولكنهم عجزوا عن قتله، لأنهم....

قاطعها في لهفة:

- خافوا.

حدَّقت فيه بمنتهى الدهشة، قبل أن تقول بصوت مرتجف:

- تمامًا مثلما حدث معنا أمس.

هتف في حماس:

- بالضبط.

بدت شديدة الانفعال، وهي تقول:

- لقد أخبرت أمي أنه أعطاها التميمة بعدها، وأخبرها أنها ستحميها، ولكنَّ أهل حيِّها انقضوا عليه بعد أن خلعها عن عنقه، و....

اتسعت عيناه، على الرغم من أنها لم تكمل عبارتها، ورفع يده يحدِّق في تلك التميمة في انبهار، قبل أن يُغمغم:

- إذن فهي تحمي بالفعل.

سألته في خفوت مضطرب:

- أهي مسحورة؟!...

نظر إليها في استنكار، وهو يقول:

- وما شأن السحر بما فعلته بهاتفينا المحمولَين؟!...

غمغمت في خجل:

- إنها مجرد فكرة.

هزَّ رأسه نفيًا، ووجهه يحمل علامات الاستنكار، ثم لم يلبث أن استعاد حماسه فجأة، وهو يقول:

- ماذا لو فحصنا طاقتها؟..

لم تفهم عبارته، فغمغمت:

- ماذا؟!..

لم يحاول حتى إجابة سؤالها، وهو يندفع نحو جهاز آخر، ضغط عدة أزرار به، ثم وضع التميمة في منتصفه، وضغط زرًا أخيرًا...

ولم ينتظر الجهاز طويلًا....

فمع ضغطة الزر، قفز إلى شاشته أصغر وأهم رقم في الوجود...

صفر....

وتراجع عاصم في حركة حادة، حتى إنه كاد يرتطم بخطيبته، التي هتفت، وهي تسرع لتفاديه:

- احترس.

التفت إليها في حركة حادة، قرأت خلالها في ملامحه انفعالًا جارفًا، قبل أن يعود ببصره إلى شاشة الجهاز، هاتفًا:

ـ مستحيل!!

سألته بنفاد صبر:

ـ ماذا هذه المرة؟!...

أجابها في لهجة، أقرب إلى اليأس:

ـ لا توجد أية مجالات تنبعث منها على الإطلاق.

سألته في حذر:

ـ أهذا جيد أم سيئ؟!..

مرة أخرى، لم يجب سؤالها إطلاقًا، وهو يقول في أسى:

ـ ولكن كيف؟!... لقد أطلقت أمس مجالًا كهرومغناطيسيًا بالغ الشدة، حتى إنه...

لم يُكمل عبارته...

ولم تحاول هي أن تسأله....

فقط ران عليهما صمت طويل، استغرق خمس دقائق كاملة تقريبًا، قبل أن يفتح ممدوح الباب، قائلًا:

ـ أيمكنني العودة إلى عملي؟!...

* * *

ـ وماذا حدث بعدها؟!...

سألتها يارا في شغف، فغمغمت في ضيق:

ـ لا شيء... عاد ممدوح إلى المعمل، وانصرفت أنا.

سألتها في اهتمام فضولي:

ـ والتميمة؟!...

هزَّت زينب كفيها، قائلة:

ـ تركته يُجري باقي اختباراته عليها.

تراجعت يارا في مقعدها مندهشة، وهي تهز رأسها، قائلة:

ـ عجيب هو أمر تلك التميمة..

هتفت بها زينب في غضب:

ـ ألا يشغلك سوى أمرها؟!..

اعتدلت يارا، تسألها في اهتمام:

ـ ألا يشغلك أنت؟!..

هزَّت زينب كتفيها، قائلة:

ـ يشغلني ما أصابه هو.

هزَّت يارا كتفيها بدورها، وهي تقول:

ـ أمر طبيعي.

هتفت زينب مستنكرة:

ـ أن يتجاهلني؟!

أجابتها في حسم:

- بل أن يجذب لغز عجيب كهذا اهتمامه... إنه عالم، وليس مجرد شخص عادي..

ثم مالت نحوها، مستطردة في حماس:

- تصوري لو واجهتِ أنت يومًا مرضًا عجيبًا، تتعارض أعراضه مع كل ما درسته في الكلية، وما اختبرته في الحياة العملية... ألن يحتل هذا كل اهتمامك؟!..

بدا لها الأمر منطقيًا، فغمغمت:

- بالتأكيد...

ثم أضافت في حدَّة:

- ولكنْ لا يحق له أن ينشغل بها طوال الوقت.

وأشارت إلى صدرها، هاتفة في غضب:

- أنا ما زلت هنا.

كانت على حق... عاطفيًا...

ولكنَّ عقل عاصم، لم تكن فيه، أية مساحة للعواطف، في تلك اللحظة...

كان قد عاد إلى منزله، بعد انتهاء عمله، وحمل معه تلك التميمة، ووضعها أمامه على مكتبه، وراح يتطلَّع إليها طويلًا في صمت.

ذلك الشيء الصغير، كان بالنسبة إليه أعظم لغز عرفه في حياته...

وربما في حياة الكون كله...

من أين أتت؟!...

وماذا تفعل؟!...

وكيف تحمي؟!...

أين، وكيف، وماذا؟!...

وربما أيضًا لماذا؟!...

لماذا هي هنا؟!...

لماذا؟!...

شعر أن عقله يلتهب، من كثرة التفكير في الأمر، فأمسك التميمة بأصابعه ونظر إليها مليًّا، قبل أن يقول، وكأنه يُحدثها:

- تُرى من أين أتيتِ؟!... إنكِ حتمًا لستِ جزءًا من نيزك ما، سقط على أرضنا عشوائيًا.... بنيتك تؤكد هذا.

قلَّبها بين أصابعه، وتطلَّع إلى تلك الثقوب الثلاثة الدقيقة أسفلها، قبل أن يتابع، وقد تسلل التوتر إلى لهجته:

- أنت شيء صنعته كائنات عاقلة.

ثم انعقد حاجباه في شدة، وهو يضيف، في توتر متصاعد:

- وربما ليست أرضية أيضًا...

احتقن وجهه عند هذه النقطة، وبدأت أصابعه تُفلت التميمة في عصبية، تتصاعد لحظة بعد أخرى، حتى تحوَّلت عصبيته إلى غضب عارم، جعله يُلقي التميمة بعيدًا، وهو يهتف في غضب:

ـ أي سر تحملينه!

طارت التميمة في هواء الحجرة، ثم سقطت، وارتطمت بالأرض في عنف...

وقفزت...

على الرغم من صلابتها وبرودتها، قفزت عند ارتطامها بالأرض، كما لو أنها كُرة من المطاط...

ولكنَّ هذا لم يكن أعجب ما حدث...

لقد قفزت الكرة، وعادت تطير عبر هواء الحجرة، لتسقط في يد عاصم الذاهل مرة أخرى...

وعندما استقرت في يده، تألَّقت...

تألَّقت بضوء أزرق باهت، لثانية أو ثانيتين، قبل أن يخبو تألُّقها، وتستقر باردة كالثلج في يده...

ولدقيقة أو يزيد، حدَّق عاصم في التميمة، وقد اتسعت عيناه عن آخرهما، وراح قلبه يخفق...

ويخفق...

ويخفق...

هذا الشيء مبرمج على نحو ما...

وهو ليس أرضيًّا...

حتمًا...

خُيِّل إليه أن تلك التميمة لم تعد بالبرودة التي كانت عليها، ربما لأن جسده صار أكثر برودة منها..

ربما...

أو لأنه أدرك أن ليلته الثانية، مع تلك التميمة، لن تختلف عن ليلته الأولى...

بلا نوم...

سبح دقائق مع أفكاره، وهو يُداعب مادة التميمة بأصابعه في حذر، حتى اتجه بصره وانتباهه إلى تلك الأحجار الصغيرة، التي تصنع سلسلتها...

راح يفحصها في اهتمام ودقة، وهو يغمغم:

ـ ملمسكِ أيضًا عجيب... تُرى من أية مادة صُنعتِ؟

استمر يفحص سلسلة الأحجار الصغيرة لحظات، ثم انتفض جسده فجأة، وهو يقول في انفعال:

ـ هذا يحتاج إلى جيولوجي.

هبَّ من مقعده بحركة فجائية، واختطف هاتفه اختطافًا، وطلب رقمًا في سرعة، ولم يكد يسمع صوت مُحدِّثه، حتى قال:

- مجدي... عندي أحجار أريدك أن تحدد نوعيتها... نعم.... أعلم كم الساعة الآن.... تقبل اعتذاري، ولكنه أمر بالغ الأهمية... نعم... للغاية... بالطبع لا أعرف ماهيتها، وإلا فلِمَ طلبتك...

نطق الجزء الأخير في انفعال، أطار النوم من عين مجدي، وهو يقول:

- لا بأس يا عاصم... لا بأس... متى تريدني أن أمر بك لفحصها

صمت عاصم لحظة، ثم أجاب في حزم وانفعال:

- الآن.

ارتفع حاجبا مجدي في دهشة، وهو يُلقي نظرة على ساعته... ولكنه ذهب إليه...

وفور وصوله، رفع يده قائلًا، في محاولة للتظاهر بالصرامة:

- أمامك ساعة واحدة على الأكثر.

لم يجادله عاصم فيما قال، ولكنه ناوله التميمة، وهو يسأله في حزم، لم يخلُ من نبرة توتر واضحة:

- قل لي، ما هذه الأحجار الصغيرة؟!...

ارتجفت يد مجدي، عندما أمسك التميمة، وغمغم في دهشة:

- ما هذا؟!... هل كنت تحتفظ بها في البرَّاد؟!...

أشار إليه عاصم في توتر، قائلًا:

- سأشرح لك أمرها فيما بعد.

ولأنه صديقه منذ زمن طويل، ويعرف طبيعته جيدًا، لم يحاول مجدي تكرار السؤال، وهو يقول في استسلام:

- لا بأس.

تحوَّل شعوره بالاستسلام إلى دهشة كبيرة، عندما بدأ في فحص تلك الأحجار الصغيرة، وتساءل:

- من أين أتيت بها؟!...

أجابه عاصم في سرعة:

- إنها إرث عائلي... تميمة قديمة، تخص خطيبتي.

ردَّد مجدي في دهشة بالغة:

- قديمة؟!... مستحيل!

هزَّ مجدي كتفيه، قائلًا:

- الملمس، والألوان، والخامة...

صمت لحظات، يُعيد خلالها فحص الأحجار الصغيرة، قبل أن يُضيف في حزم:

- إنها ليست أحجارًا طبيعية.

تراجع عاصم في دهشة، هاتفًا:

- ليست ماذا؟!..

أجابه على الفور، في حزم وثقة:

ـ لا تنطبق عليها سمات أحجار معروفة، ثم إنها، وعلى الرغم من عدم انتظامها، ذات سطح أملس للغاية، يُوحي بأنها أحجار صناعية.

أمسك عاصم ذراعه، في انفعال عجيب، وهو يقول:

ـ أأنت واثق؟!...

أطلق مجدي آهة قصيرة، وأزاح يده في صعوبة، وهو يجيب:

ـ الأمر يمكن حسمه معمليًّا.

سأله بمنتهى اللهفة:

ـ كيف؟!..

أشار مجدي بيديه، قائلًا:

ـ سنأخذ عينات صغيرة منها، ونقوم بفحصها تحت الميكروسكوب.

أمسك عاصم ذراعه مرة أخرى، قائلًا في انفعال مبالغ:

ـ هيا نفعل ذلك إذن.

جذب مجدي ذراعه منه في قوة، وهو يهتف:

ـ رويدك يا رجل... لا يمكنني فعل هذا إلا في الصباح، في معمل الكلية.

سأله عاصم في عصبية:

ـ ألست تملك ميكروسكوبًا خاصًّا؟!

أجابه في سرعة:

ـ بلى.... ولكنَّ هذا يحتاج إلى كيماويات وسيطة أيضًا.

بدا توتر شديد على ملامح عاصم، فربت مجدي على ذراعه، قائلًا:

ـ اهدأ يا صديقي.... إنها فترة الليل فحسب.

مطَّ عاصم شفتيه في شدة...

فترة الليل....

ومن يدري ماذا يمكن أن يحدث، في فترة الليل؟!...

من يدري؟!...

الفصل التاسع

وسط سكون الليل، تألَّقت فجأة تلك التميمة...

وفي هذه المرة، كان تألُّقها ترددِيًّا، على نحو عجيب...

كانت وكأنها تبث إشارة ما...

إشارة غير أرضية...

استمر تألُّقها الترددي لحظات، ثم خبا، في نفس الوقت الذي ظهر فيه ذلك الضوء في الشرفة...

ضوء أزرق باهت، غمر الشرفة كلها، مع أزيز يكاد لا يُسمع....

وفي هدوء، راح مزلاج النافذة يتحرك....

ثم سقط...

وبحركة شديدة النعومة، تحركت ضلفتا الشرفة، وظهرت فيها تلك الأجسام...

أجسام شبه بشرية، ولكنها شديدة النحول، وذات رأس كبير، أشبه بثمرة كمثرى ضخمة مقلوبة، وبأصابع طويلة... للغاية...

وفي بطء، وبلا صوت تقريبًا، وبعيونها الواسعة، تحرَّكت تلك الأجسام نحو زينب، المستغرقة في النوم، وامتدت الأصابع الرفيعة الطويلة نحو وجهها، و....

وانتفض جسد زينب في قوة، وهي تهبُّ من فراشها، مُطلقةً صرخة فزع قوية رنانة....

وبكل الرُّعب، راحت تتلفت حولها، في حجرتها الخالية، قبل أن يندفع والداها إلى المكان في ذعر، ووالدتها تهتف:

ـ ماذا أصابك يا زينب؟!

عادت زينب تتلفَّت حولها في خوف، وهي تقول بصوت مرتجف:

ـ كانوا هنا..

سألها والدها، وهو يتلفَّت في المكان بدوره:

ـ مَن هم؟!..

اتَّسعت عينا زينب لحظات، قبل أن تدفن وجهها بين راحتيها، مُغمغمة في صوت أقرب إلى البكاء:

ـ لست أدري... لست أدري.

ابتسم والدها في حنان مشفق، وهو يغمغم:

ـ هو كابوس إذن.

احتضنتها أمها محاولة تهدئتها، ولكنَّ زينب انفجرت باكية بين ذراعيها، على نحو أسال دموع الأم نفسها، فربتت عليها، هامسة:

ـ اهدأي يا بُنيتي... اهدأي... إنه كابوس فحسب... ربما أرهقتك الحياة، أو تناولت وجبة ثقيلة قبل النوم..

تذكَّرت شيئًا ما فجأة، فاعتدلت تُلقي نظرة على عنقها، قبل أن تسألها في ذعر:

ـ أين تميمتك؟!

أجابتها زينب، من وسط دموعها:

ـ تركتها لـعاصم..

انعقد حاجبا والدها، وهو يقول في حدة:

ـ ولماذا؟!..

مسحت دموعها بيدها، وهي تقول:

ـ أراد أن يفحصها.

هتفت الأم مستنكرة:

ـ يفحصها؟!...

أما الأب، فقال في شيء من الصرامة:

ـ ألم نطلب منك عدم خلعها عن عنقك أبدًا.

خفضت عينيها في خجل وأسف، فقالت أمها غاضبة:

- لهذا أصابك الكابوس... لقد فقدتِ ما يحميك.

بدا والدها غاضبًا بحق، وهو يقول:

- أول ما تفعلينه في الصباح هو استعادتها.

أومأت برأسها صاغرة، وهي تتساءل في أعماقها: ماذا ستقول لعاصم؟!...

ماذا؟!..

* * *

- أعطني إياها...

قالها مجدي في هدوء، وهو يجلس في معمله، أمام الميكروسكوب الخاص به، ويمد يده نحو عاصم، الذي سأله في تردد:

- ماذا ستفعل بها؟!..

ابتسم مجدي، قائلًا:

- لا شيء.... اطمئن... سأمرر نصل مشرطي على أحجارها قليلًا؛ لأحصل على ذرات منها، يمكن فحصها تحت الميكروسكوب.

سأله عاصم في تردد:

- ألن يترك هذا أثرًا؟!...

هزَّ مجدي كتفيه، قائلًا:

- سأبذل قصارى جهدي، حتى لا يبدو ملحوظًا.

تردد عاصم لحظة أخرى، ثم ناوله القلادة، والتقط مجدي مشرطه، وراح يمرره على طرف الأحجار، في مزيج من القوة والحذر...

ولكن شيئًا لم يحدث...

لم ينجح نصل مشرطه الحاد في إزالة ذرة واحدة من تلك الأحجار الصغيرة...

وفي دهشة، تحسَّس مجدي تلك الأحجار، على نحو جعل عاصم يسأله في اهتمام شديد:

- ماذا يحدث؟!..

أجابه، والحَيرة تتقاطر مع كلماته:

- إنها ذات ملمس ناعم، وعلى الرغم من هذا...

لم يكمل عبارته، فسأله عاصم في لهفة:

- ماذا؟!..

هزَّ مجدي رأسه، دون أن يجيب، وتنهَّد في توتر واضح، ثم قال في حزم حاسم:

- ربما تحتاج إلى قوة أكبر.

عاود الكَرَّة، وهو يضغط نصل المشرط، ويحركه بقوة أكثر...

ثم أكثر...

ثم أكثر...

وراحت أنفاسه تتلاحق في انفعال، والعرق يغمر وجهه، وعاصم يتابعه في توتر يتصاعد....

ويتصاعد...

ويتصاعد...

ثم فجأة، سمع كلاهما صوتًا حادًّا، اتسعت معه عيونهما....

لقد انكسر المشرط...

وبعنف...

ولم تفقد تلك الأحجار الصغيرة ذرة واحدة...

وفي ذهول، ساد المكان صمت رهيب، وكلاهما يحدِّق في القلادة، قبل أن يُغمغم مجدي، دون أن يرفع عينيه عنها:

- من أين أتيت بها؟!..

ولم يُجبْ عاصم سؤاله...

فقط التقط التميمة من يده، وراح يفحص أحجارها الصغيرة، وقد انعقد لسانه من فرط الذهول...

فعلى الرغم من كل ما بذله مجدي من جهد، لم يترك مشرطه أدنى أثر على تلك الأحجار الصغيرة، كما لو أنها مصنوعة من صلب يفوق أي صلب معروف، على وجه الأرض...

وبنفس الذهول، غمغم مجدي:

- الماس وحده غير قابل للخدش... وهذا ليس ماسًا... ملمسه، وقوامه، ووزنه... إنه ليس ماسًا بالتأكيد.

ثم أدار عينيه إلى عاصم، وغمغم:

- إنها خفيفة الوزن للغاية، على الرغم من كل ما بها من أحجار.

انتزع عاصم نفسه من ذهوله، وهو يسأله في خفوت:

- هل من وسيلة أخرى لفحصها؟!...

صمت مجدي لحظات، ثم هزَّ رأسه، مغمغمًا:

- الحامض.

اتسعت عينا عاصم، وردَّد:

- الحامض؟!

نهض مجدي من مقعده، واتجه نحو حوض كبير، به سائل أخضر اللون، وقال وهو يشبك القلادة في خطاف معلق فوقه:

- تفاعل المواد المختلفة مع الحامض يختلف، وبهذا الأسلوب، يمكننا على الأقل أن...

قبل أن يُتم عبارته، تألَّقت التميمة فجأة..

تألَّقت بشدة، حتى إن مجدي أفلتها في حركة حادة، وهو يتراجع في عنف، مُطلقًا صرخة فزع...

وتراجع عاصم بدوره، وهو يحدِّق في التميمة المتألِّقة، و....

وفجأة أيضًا، حدث ذلك الأمر المذهل....

ولم يستطع أيهما النطق بحرف واحد...

من شدة الذهول...

والرعب...

«لست أصدق هذا...»...

نطقت يارا العبارة في صرامة، وهي تخلع معطفها الطبي، وتجلس أمام زينب، التي خفضت عينيها، وغمغمت، في لهجة أقرب إلى البكاء:

- هذا هو الحل الوحيد.

سألتها يارا في اعتراض:

- ولماذا لا تتعاملين مع الأمر ببساطة أكثر، وتطلبينها من عاصم في وضوح.

قالت زينب في حزن:

- وأخبره أن أبي وأمي يُصرَّان على استعادتها؟!..

هزَّت يارا كتفيها، قائلة:

- ولِمَ لا؟!... أليس هذا ما حدث فعليًّا؟!..

انسالت دموع زينب بالفعل، وهي تقول:

- بلى، ولكنَّ عاصم يتعامل مع الأمر بروح العالِم، ولقد رأيت

بنفسي لهفته الشديدة على فحص التميمة، فكيف أصدمه الآن برغبتي في استعادتها.

قالت يارا في حزم:

- الكذب على والديك لن يحلَّ المشكلة.

تنهَّدت زينب، وغمغمت:

- ولكنه سيمنحني مُهلة إضافية على الأقل.

صمتت كلتاهما لحظات، قبل أن تقول يارا في حزم:

- رأيي أنه ما دام عاصم يحبك، فمن الضروري أن يشاركك حياتك ومشكلاتك، ومن الضروري أيضًا أن تصارحيه بكل الحقائق.

ثم اعتدلت، مضيفة:

- إنكما تستعدَّان للزواج يا زينب، ومع الزواج، لا يصح أن تظلا طرفين... صدقيني... صارحيه.

لم يكن عاصم، في تلك اللحظة، مؤهلًا للمصارحة، أو حتى لسماع حرف واحد، في أي موضوع، ومن أي مخلوق، أيًّا كان....

فما يواجهه كان يكفي؛ ليلتهم حواسه كلها...

بلا رحمة...

أمام عينيه، وعيني صديقه، كان أمر رهيب يحدث....

لقد خرج، مع تألُّق التميمة، شيء ما منها...

شيء أشبه بكُرة صغيرة، سبحت أمامها لحظة، ثم تحوَّلت بغتة إلى أكثر صورة مُرعبة يمكنك رؤيتها...

كائن أشبه بالغوريلا، يملأ جسده شعر كثيف، وله رأس صغير نسبيًّا، يبرز منه قرنان صغيران، وتوجد في فمه أسنان بارزة، يُحيطها على الجانبين نابان طويلان، فوقهما أنف أفطس كبير، وجبهة عريضة، في منتصفها عين واحدة رهيبة، حمراء كالدم، ومشقوقة طوليًّا كالثعابين...

ومن ظهر ذلك الكائن الرهيب، يبرز جناحان، ليسا كبيرين، نسبة إلى الجسد نفسه، ولكنهما مثل جناحي وطواط عملاق...

وفي يد ذلك الكائن الرهيب، ذي الأظافر الحادة الطويلة، كان هناك سيف حاد النصل، يلتمع على نحو عجيب، وعلى قمته دماء جافة قديمة...

ولقد كشر ذلك المخلوق عن أنيابه، بلا صوت، وبدا مستعدًّا للانقضاض عليهما...

وأطلق مجدي صرخة رعب، وتراجع بحركة حادة، في حين ظل عاصم في مكانه، يحدِّق في ذلك المخلوق في صمت، بعينين بلغتا ذروة اتساعهما، وقلب كادت خفقاته تبلغ حدًّا قياسيًّا، يستحق التسجيل في موسوعة الأرقام القياسية العالمية...

وعلى الرغم من هول الموقف، أقدم عاصم على أعجب تصرُّف يمكن أن يُقدم عليه إنسان، في مثل هذه الظروف...

لقد اتجه نحو ذلك الوحش...

اتجه نحوه في تردُّد أولًا، ثم في ثبات...

ومد يده إليه...

وبكل ذعر الدنيا، صرخ مجدي:

- ماذا تفعل أيها المجنون؟!...

ولكنَّ عاصم بدا وكأنه حتى لم يسمعه...

لقد واصل الاقتراب من ذلك الوحش، الذي لم يبدُ عليه حتى أنه يلمحه، حتى صار أمامه مباشرة، ويده الممدودة ما زالت أمامه...

في قلب الوحش...

واتسعت عينا مجدي، وهو يُغمغم:

- رباه!!

ومع غمغمته، خبا تألُّق التميمة في بطء، حتى تلاشى تمامًا...

واختفى الوحش...

وفي بطء ذاهل، نهض مجدي يُغمغم:

- مستحيل!... كيف؟!...

لم يستطع إتمام عبارته، ولكنَّ عاصم أطلق تنهيدة قوية، في نفس الوقت الذي انفتح فيه الباب بحركة حادة، جعلت مجدي يقفز من مكانه، ويلتفت إلى الباب، هاتفًا في عصبية، أفرغ فيها كل انفعالاته:

- ما هذا؟!..

امتقع وجه الزميل عند الباب، وغمغم في ارتباك:

- سمعتك تصرخ.

صاح فيه مجدي في عصبية:

- أهذا مبرِّر، لتقتحم معملي على هذا النحو؟!...

ازداد وجه الزميل امتقاعًا، وغمغم في ارتباك أكثر:

- تصورت أن....

قاطعه مجدي بنفس الحدة العصبية:

- نقطة حامض سقطت على يدي.

أدار زميله عينيه، يُلقي نظرة سريعة على عاصم، الذي يخلع التميمة من ذلك الخطاف فوق حوض الحامض، وغمغم:

- لقد بدت لي أشبه بصرخة رعب، منها بصرخة ألم...

همَّ مجدي بقول شيء آخر، ولكن زميله رفع كفه، يشير إليه بالامتناع، وهو يتراجع مُغلقًا الباب:

- حسنًا.... سأنصرف.

لم يكد يُغلق الباب خلفه، حتى التفت مجدي إلى عاصم، متسائلًا بنفس الحدة:

- كيف أمكنك أن تُقدِم على هذا؟!...

أجابه عاصم في هدوء عجيب، يتنافى مع الموقف، وهو يتطلّع إلى القلادة في يده:

- ألم تفهم بعد يا رجل؟!... إنه ليس كائنًا حقيقيًا... إنها صورة هولوجرافية ثلاثية الأبعاد فحسب.

حدَّق فيه مجدي لحظات في دهشة مرتبكة، قبل أن يغمغم:

- صورة هولوجرافية؟!... ومن أين أتت؟!..

أشار عاصم إلى التميمة في يده، وقال:

- منها.

تضاعفت دهشة مجدي، وهو يهتف مستنكرًا:

- تقول إنها إرث عائلي... أكان هناك ما يُمكّنهم حتى من فَهم مثل هذه التقنية أيامها؟!...

أجابه عاصم في خفوت:

- كلا.

ثم التفت إليه، وعلت شفتيه ابتسامةٌ باهتة، وهو يضيف:

- ولكن نحن نفهمها.

ثم رفع يده، وكأنما يُلقي على التميمة مزيدًا من الضوء، مع استطراداته:

- ولهذا تقع المسئولية على عاتقنا.

العبارة نفسها قالها لخطيبته زينب، عندما عاد إلى عمله، ليجدها في انتظاره هناك...

كان يتوقع منها المفاجأة والدهشة، إلا أنها خفضت عينيها في خجل، وغمغمت في ارتباك:

ـ ولكنَّ والديَّ يُصرَّان على استعادتها.

تراجع في دهشة، ليسألها:

ـ بعد كل ما أخبرتك به؟!..

رفعت عينين حزينتين إليه، قائلة:

ـ الأجدى أن تخبرهما به.

التقى حاجباه في توتر، وهو ينحني نحوها، قائلًا:

ـ زينب... تلك التميمة، التي ورثتها أمك عن جدتها، تحوي تكنولوجيا، تفوق بألف مرة، وربما أكثر، ما نعرفه في عصرنا هذا، فما بالك بالعصر الذي أتت منه.

بدت حائرة بائسة، وهي تقول:

ـ ولكنهما يُصران.

تضاعف توتره، وهو يقول في عصبية:

ـ إننا أمام واحد من أعقد وأهم ألغاز الكون، فلا أحد يعلم كم طالت رحلة تلك التميمة، قبل أن تصل إلى الجندي، الذي أهداها لجدة أمك... ربما استغرق هذا عقدًا من الزمان، أو ربما

قرنًا كاملًا أو أكثر... كل هذا وهي تحمل داخلها هذه التقنية السابقة لعصرنا... ألا يبدو لك هذا أمرًا مذهلًا، يستحق المزيد من التجارب والفحوص...

هزَّت رأسها في عصبية، وهي تقول:

ـ بالتأكيد... ولكنَّ هذا ليس حوارنا... أرجوكَ يا عاصم.... أعطني تميمتي.

تراجع ينظر إليها لحظة في استنكار، قبل أن يستجمع كل انفعاله، وحزم في كلمة واحدة:

ـ لا.

واتسعت عيناها في شدة، وهي تحدِّق فيه...

فقد كان رده بالنسبة لها صدمة...

عنيفة....

للغاية.

الفصل العاشر

احتقن وجه والد زينب في دهشة، وهو يقول في حدة:

-ماذا يعني بأنه لن يعيدها؟!

وهتفت أمها في غضب ساخط:

-هل قرر الاستيلاء عليها؟!..

أجابتها زينب في سرعة:

-كلا... إنه هدف علمي بحت.

ضرب والدها سطح المنضدة بقبضته في غضب، وهو يقول في حدة:

-ليس هذا من حقه.... كل القوانين تجبره على الحصول على موافقتنا، قبل أن يُقدم على هذا.

لم تدرِ زينب بِمَ تجيب...

إنها واثقة مما قالته....

عاصم عالم، من قمة رأسه، وحتى أخمص قدميه...

هذا فقط ما يشغله....

لقد أخبرها بهذا، عندما رفض إعادة القلادة إليها....

وأخبرها أنه سيتولى أمر والديها....

ولكن كيف؟!...

كيف؟!...

كيف؟!...

فجأة، ارتفع رنين جرس الباب، فانتفضت زينب، وهي تُطلق صرخة فزع قوية، انخلع لها قلبا والديها، فهتفت الأم، وهي تندفع نحوها، وتحتويها بين ذراعيها:

- بسم الله الرحمن الرحيم.... ماذا أصابك يا دُرة قلبي.

واتسعت عينا والدها، وهو يُغمغم في حَيرة شديدة التوتر:

- إنه جرس الباب فحسب.

ثم استدار يفتح الباب، وهو يُغمغم:

- فقط جرس الباب.

لم يكد يفتح الباب، حتى تسمَّر في مكانه، واتسعت عيناه، في مزيج من الدهشة والانزعاج والاستنكار، وهو يحدِّق في وجه عاصم، الذي وقف أمامه هادئًا رصينًا، وهو يقول:

- مساء الخير يا عماه.

هتفت زينب، في لهفة ودهشة وفرح:

- عاصم؟!

واتسعت عينا أمها في دهشة، في حين صاح به الأب في غضب:

- أوَتجرؤ على القدوم إلى هنا؟!..

هزَّ عاصم كتفيه في هدوء، وهو يقول:

- وماذا حدث، حتى لا أجرؤ على هذا؟!

صاحت به أمها غاضبة:

- لقد استوليت على تميمتها.

دخل عاصم إلى الشقة، في هدوء عجيب، وأغلق الباب خلفه في بساطة، وهو يقول:

- مَنْ قال هذا؟!..

ثم أخرج القلادة من جيبه، ومد يده بها إلى زينب، وهو يبتسم، قائلًا:

- كل ما في الأمر هو أنني أردت أن آتي بها بنفسي.

مدَّت الأم يدها إلى تميمة ابنتها في لهفة، ولكنَّ زينب اعترضتها، وهي تقول في حزم:

- أمي... إنها تميمتي أنا.

تراجعت أمها عن غير رضا، والتقطت زينب القلادة، دون أن

ترفع عينيها عن عيني عاصم، الذي واصل منحها نفس الابتسامة، وهو يقول:

ـ ارتديها.

ارتدتها زينب، وهي تبتسم بدورها في حنان، وتطلّعت إليه في حب، و...

وفجأة، انقلبت ملامح عاصم، وهو يُخرج من جيبه مسدسًا، صارخًا:

ـ والآن موتي.

صرخت والدتها...

وتحفّز والدها...

وشهقت زينب...

وتألّقت القلادة...

وفي اللحظة التالية، كادت الأم تسقط مغشيًا عليها، وتراجع الأب في رعب، وهو يردد:

ـ يا إلهي!!... يا إلهي!!

أما عاصم، فقد عقد ساعديه في هدوء، وهو يتطلّع إليهما، وزينب تهتف ذاهلة:

ـ ماذا حدث؟!

جلس عاصم على أقرب مقعد إليه، وهو يقول، مستعيدًا هدوءه:

ـ أثبت وجهة نظري.

خبا تألُّق التميمة تدريجيًّا، وهتف والد زينب:

ـ ماذا وضعت في تميمة زينب؟!..

اعتدل عاصم، مجيبًا في اهتمام:

ـ بل قل ماذا يوجد في تلك التميمة منذ الأزل.

كانت والدتها لا تزال ترتجف، حتى إنها لم تقوَ على النُّطق، في حين واصل هو بنفس الاهتمام:

ـ هذه ليست مجرد تميمة عادية يا عماه، بل هي ـ من وجهة النظر العلمية ـ أخطر سر عرفه الكون، منذ وضع العلم بصمته على العالم.

انتزعت أم زينب نفسها من رُعبها، وغمغمت:

-إنها مسحورة.

هزَّ عاصم رأسه وقال في حسم رصين:

-بل هي معجزة علمية، يستحيل صنعها في عصرنا هذا، وبكل ما لدينا من علم وتكنولوجيا، فما بالكم بالزمن الذي أتت منه.

ثم رفع سبَّابته، مضيفًا في حزم:

-والذي لا نعلم عنه سوى فصله الأخير.

غمغمت أم زينب بصوت مرتجف:

ـ ولكن ذلك الذي خرج منها...

لم تستطع إكمال عبارتها، من شدة ارتجافها، فهتفت زينب في توتر:

ـ ما الذي خرج منها؟!..

أشار إليها والدها، قائلًا في خفوت مضطرب:

ـ ذلك الوحش.

هتفت، وتوترها يتصاعد:

ـ أي وحش؟!...

واكتسب صوتها رنة باكية، وهي تستطرد:

ـ إنني لم أرَ شيئًا.

أشار إليها عاصم، وهو يقول في حماس:

ـ وهذا واحد من أخطر أسرارها... أنَّ مرتديها لا يرى ما يراه الآخرون.

ثم هزَّ رأسه في شدة، مكملًا:

ـ صدقوني، هذه التميمة لغز علمي مذهل، وكشفُ سرها قد يعني الخير للعالم كله.

غمغمت أمها:

ـ ولكنها تحمي ابنتي.

هزَّ رأسه نفيًا في قوة، قائلًا في حزم:

ـ إنها تحمي نفسها فحسب، لا مَنْ يرتديها.

قال والدها:

ـ وبالتالي تحمي من يرتديها.

أجابه عاصم في سرعة:

ـ وكشف لغزها، قد يعني حماية العالم كله.

أنهى عبارته الأخيرة، فساد المكان صمت رهيب مهيب، والثلاثة يتبادلون النظرات، وعاصم يتابعهم في قلق واهتمام....

كان يدرك أن تلك النظرات أشبه بالتشاور...

وكان ينتظر النتيجة...

وبمنتهى اللهفة....

ومضت الدقائق بطيئة...

بطيئة...

وطال الصمت...

وطال...

وطال....

ثم، وبحركة حاسمة، خلعت زينب التميمة عن عنقها، وناولتها له، قائلة:

ـ أخبرنا بما تتوصل إليه.

ولم ينطق والدها أو والدتها بحرف واحد، في حين ابتسم عاصم في ارتياح، وهو يدسُّ التميمة في جيبه، قائلًا:

- بالتأكيد....

ثم رفع المسدس، إلى زينب، قائلًا:

- وهذا هدية لك.

تراجعت في خوف، مغمغمة في استنكار:

- لي أنا؟!..

ابتسم، قائلًا:

- سيروق لكِ للغاية.

ثم غمز بعينه، مع نظرة الاستنكار التي أطلت من عينيها، واتسعت ابتسامته، وهو يضيف:

- إنه من الشوكولاتة.

ولم يضحك أحد لدعابته...

«والآن، ماذا علينا أن نفعل...»...

نطقها ممدوح في توتر، وأدهشه أن يبدو عاصم هادئًا على هذا النحو، بعد كل ما رواه له، وأن يقول في اهتمام علمي خالص:

- في البداية، سنلقي على أنفسنا عددًا من الأسئلة، ونبحث عن الوسيلة لإجابتها.

سأله في اهتمام، لم يخلُ من التوتر:

- مثل ماذا؟!..

جلس عاصم أمام جهاز الكمبيوتر، يكتب القائمة، وهو يقول:

- أولًا: ما عُمر هذه القلادة؟!... ثانيًا: كيف تعمل؟!... ثالثًا: ما الذي تحميه داخلها بالضبط؟!... رابعًا: لماذا يقتصر تأثيرها على من يُهدد من تحميه فحسب، ولماذا لا يرى سواه ما تبثه؟!...

قال ممدوح في توتر:

- نسيت السؤال الأهم.

التفت إليه عاصم متسائلًا، فأكمل:

- من أين أتت؟!..

صمت عاصم لحظات، ثم قال في اهتمام:

- أظن أننا، لو أجبنا عن الأسئلة الأولى، فسيوصلنا هذا حتمًا إلى إجابة سؤالك.

فكر ممدوح قليلًا، ثم قال في خفوت:

- أتظن هذا بالفعل؟!..

أومأ عاصم برأسه إيجابًا، فالتقط ممدوح نفسًا عميقًا، وغمغم:

- على بركة الله...

ارتدى معطفه المعملي، على نحو يوحي بأنه قد حسم أمره، وسأل، وقد ذهب توتره، وحل محله اهتمامه العلمي:

- فلنبدأ بالسؤال الأول: ما عُمر هذه التميمة؟!..

أشار عاصم إلى مجدي، قائلًا:

- هو سيتولَّى البحث عن وسيلة لمعرفة هذا؟!..

التفت ممدوح إلى مجدي، الذي أومأ برأسه إيجابًا، وغمغم:

- هذا لو أن القوانين التي أعرفها في عالمنا، تنطبق عليها.

غمغم ممدوح:

- تتعشَّم هذا.

التقط مجدي نفسًا عميقًا، وقال:

- سنبدأ باختبار الكربون.

* * *

- أي اختبار هذا؟!...

ألقت يارا سؤالها في حَيرة، وهي تسير إلى جوار زينب، التي أجابتها بابتسامة حالمة:

- اختبار حب... اختبار ثقة... كان ينبغي أن أثبت لعاصم أنني أوليه كل ثقتي.

ثم التفتت إليها، مستطردة:

- أنت قلت إنها حياة.

أجابتها يارا:

- بالتأكيد، ولكن ما تروينه أشبه بأفلام الرعب... تميمتك يسكنها شيطان!... يا إلهي!... لو أنني في موضعك لَمتُّ رُعبًا.

هزَّت زينب كتفيها، وامتقع وجهها، وهي تستعيد ذكرى ما حدث أمس، مُغمغمة:

- العجيب أنني لم أرَ شيئًا.

قالت يارا في انفعال:

- ولكنَّ والديك رأيا.

لوَّحت زينب بيدها، قائلة:

- يا إلهي!... لا تذكريني بما عانياه!..

وصمتت لحظة، لتستدرك بعدها بصوت مرتجف:

- وما زالا يعانياه.

بدا انبهار متوتر على وجه يارا، وهي تقول:

- رباه!... الأمر كان يستحق ما فعله عاصم إذن.

أومأت زينب برأسها إيجابًا، وقالت:

- صدقيني... أنا أتمنى أن يكشف لغز هذه التميمة، في أسرع وقت ممكن... ولست أظنني أستطيع وضعها في عنقي بعد الآن...

قالت يارا في تردد:

ـ ولكنك قلت إنها تحميك.

أجابتها زينب في عصبية:

ـ عاصم يقول إنها تحمي نفسها.

قالت يارا في سرعة:

ـ الأمر سيان... إنها تحمي نفسها، وتحمي مرتديها في الوقت ذاته.

غمغمت زينب، وعصبيتها تتزايد:

ـ بالضبط.

بدت يارا شاردة بضع لحظات، قبل أن تغمغم:

ـ أوَتعلمين... أية فتاة في الدنيا، تتمنى الحصول على تميمة كهذه... تميمة تمنحها الأمان طوال الوقت، وتحميها من كل من يحاول إيذاءها، أو الإساءة إليها.

نظرت إليها زينب في دهشة، وهي تقول في استنكار:

ـ مع كل ما تحويه من ألغاز؟!..

أجابتها يارا، وعيناها تلتمعان على نحو عجيب:

ـ هذا جزء من سحرها.

حدَّقت فيها زينب لحظات، غير مصدقة، قبل أن تقول في حدة:

ـ هل يمكننا الحديث عن أمر آخر؟!..

تضاعفت دهشتها، مع تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجه يارا، وهي تقول في هدوء عجيب:

ـ بالتأكيد.

ولم تفهم زينب ما يعنيه هذا...

لم تفهم قَط...

* * *

ـ ما الذي لا تفهمه بالضبط؟!...

ألقى عاصم السؤال في لهفة، على صديقه مجدي، وهما يجلسان في معمل هذا الأخير، الذي راح يهزُّ رأسه في توتر، دون أن يحر جوابًا، فكرر عاصم في عصبية:

ـ ما الذي لا تفهمه؟!..

التفت إليه مجدي بوجه شاحب، وهو يجيب:

ـ هناك خطأ بالتأكيد.

سأله عاصم في قلق:

ـ أي خطأ؟!..

عاد مجدي يهز رأسه لحظات، قبل أن يلتقط نفسًا عميقًا مسموعًا، ويجيب:

ـ ربما لأن الأجهزة لم تتعرف على المادة، أو لأن...

لم يستطع إكمال عبارته؛ لأنه لم يعثر على تبرير كافٍ، مما جعل عاصم يسأله، في عصبية شديدة، امتزجت بصرامة غاضبة:

ـ ما الخطأ بالضبط يا مجدي؟!

التفت إليه مجدي بوجه شاحب، مغمغمًا:

ـ هذه التميمة العجيبة، عُمرها يقرب من مائة...

سأله عاصم في لهفة:

ـ مائة عام؟!..

هزَّ مجدي رأسه نفيًا في بطء، وكأنما لا يصدق ما سينطق به، قبل أن يقول بصوت مبحوح:

ـ مليون يا صديقي.

تراجع عاصم مبهورًا، وهو يقول بأنفاس لاهثة:

ـ مليون عام؟!...

ضغط مجدي كل حرف من حروف كلماته، وهو يقول:

ـ بل مائة مليون عام.

وارتد عاصم كمن أصابته صاعقة...

فقد كانت المفاجأة مذهلة...

للغاية...

الفصل الحادي عشر

ـ مستحيل!!...

هزَّ وليد، خطيب يارا رأسه في قوة، وهو ينطق الكلمة في حزم، وعلى الرغم من هذا فقد ظلت هي متماسكة هادئة، وهي تقول:

ـ ربما يبدو ما أقوله خيالًا مخيفًا، ولكن المدهش بحق أنه ليس كذلك، فكل كلمة أخبرتك بها هي حقيقة.

تطلَّع إليها في تردد ذاهل، فمالت نحوه، تتابع:

ـ والأهم أنه، باعتبار الألغاز، فهي تساوي ثروة لا تُقدَّر، مهما بلغ خيالك.

سألها مترددًا:

ـ مليار جنيه مثلًا؟!...

هزَّت رأسها نفيًا في بطء، والتمعت عيناها في شدة، وهي تميل نحوه أكثر، مجيبة بصوت كالفحيح:

-بل مليارات.... الدولارات.

اتسعت عيناه عن آخرهما، وتراجع في مقعده، وأنفاسه تتلاحق، كما لو أنه قد بذل جهدًا يفوق طاقته، وظل يُحدِّق فيها لِما يقرب من دقيقة كاملة، تراجعت هي خلالها في بطء، واثقة من أنها قد بلغت مأربها، وظلت صامتة، حتى غمغم هو مبهورًا:

-كل هذا القدر!

اعتدلت بحركة حادة، وهي تقول:

-كل هذا في تميمة صغيرة، يمكنك أن تضعها في جيبك، وتغادر، دون أن يشعر بك أحد.

اتسعت عيناه، مع فهمه لما ترمي إليه، وسألها لاهثًا:

-يارا... ماذا تقصدين؟!

هزَّت كتفيها، قائلة:

-ما فهمته بالضبط.

ظل يُحدِّق فيها لحظات، قبل أن يقول في توتر:

-تقولين إنهم يحتفظون بها في مركز البحوث.

هزَّت كتفيها، قائلة:

-ولا يوجد ما يمنع من زيارتهم هناك.

اتسعت عيناه، وهو يُحدِّق فيها، غير مصدق لما يحدث...

يارا... الطبيبة الشابة، التي كان يعتبرها رمزًا للكمال، هي نفسها التي تجلس أمامه الآن، وتطالبه، أو توحي إليه بأن يفعل هذا!!..

كيف يمكن أن يصدق؟!..

كيف؟!..

وفي صعوبة بالغة، سيطر على جزء من أعصابه، وهو يسألها في توتر:

-ألديك خطة؟!..

اتسعت ابتسامتها الواثقة الظافرة، وهي تجيب:

-بالطبع.

في نفس اللحظة التي نطقتها، كان عاصم يُحدِّق في زميله مجدي في ذهول، وكلاهما مصاب بصدمة معلوماتية، جعلتهما يلوذان بالصمت التام لفترة، من العسير تحديدها، قبل أن يتمتم عاصم ذاهلًا:

-ولكنَّ هذا مستحيل!!...

غمغم مجدي، والتوتر يغمر كلماته:

-بالتأكيد... في تلك الفترة، كانت الديناصورات تحكم الأرض، من مائتين وثلاثة وعشرين مليونًا من السنين، في الحقبة الثلاثية، وحتى بدء انقراضها منذ خمسة وستين مليونًا من الأعوام، في العصر الطباشيري... الإنسان لم يكن ظهر على الأرض، حتى ذلك الحين.

حدَّق فيه عاصم قبل أن يعتدل، مغمغمًا:

-مستحيل!..

بدا مجدي بائسًا، وهو يقول:

ـ الفحوص أكدت هذا؟!...

هتف به عاصم فجأة:

ـ قلت لك مستحيل!

ثم اندفع يكمل في غضب عصبي:

ـ أجهزتك عجزت عن تعرف ماهية مواد التميمة، وربما هذا ما جعلها تخطئ في تحديد عُمرها.

غمغم مجدي مرتبكًا:

ـ ولكنها أجهزة تختلف، و...

صرخ فيه عاصم يقاطعه:

ـ مستحيل!.... مستحيل!!

أرتج على مجدي، فلم يستطع الاستمرار، في حين اندفع ممدوح داخل المعمل الجيولوجي، وهو يقول متوترًا:

ـ ماذا حدث؟!... صوتكما يملأ الرواق، وكأنكما تتشاجران.

التفت إليه عاصم في حركة حادة، قائلًا في عصبية شديدة:

ـ مجدي يحاول إقناعي، بأن تلك التميمة، بكل ما تحويه من تكنولوجيا تفوق علومنا، عمرها مائة مليون عام.

التفت مجدي إلى ممدوح، الذي اتسعت عيناه في ذهول، وغمغم:

ـ العلم هو الذي قالها.

حدق فيه ممدوح لحظات، قبل أن ينتقل ببصره إلى عاصم، الذي يقول في حدة:

ـ هناك خطأ ما حتمًا... ما يقوله مستحيل!... مستحيل!..

عقد ممدوح حاجبيه، وامتزج توتره بصرامته، وهو يقول:

ـ بل هو منطقي للغاية.

التفت إليه عاصم في حدة، صائحًا في انفعال:

ـ حتى أنت؟!..

أجابه ممدوح في صرامة:

ـ أظن العلم أخبرنا أن الغضب والعصبية لا ينجزان شيئًا.

تراجع عاصم كالمصدوم، وحدق فيه في صمت، فتابع ممدوح بنفس الصرامة:

ـ و«آرثر كونان دويل» علَّمنا، في روايات «شيرلوك هولمز»، أنه عند استبعاد المستحيلات، فكل ما يتبقى هو الحقيقة، مهما بلغت غرابتها.

هتف به عاصم، وإن خفت صوته كثيرًا:

ـ لدينا هنا مستحيل؛ فالإنسان لم يظهر على الأرض، إلا بعد فناء الديناصورات.

رفع ممدوح سبابته، قائلًا:

ـ هذا ما تقوله الحفريات.

اعتدل مجدي، يقول معترضًا:

ـ ولكن هذه قاعدة أساسية....

قاطعه ممدوح بإشارة من يده، وهو يتابع:

ـ ماذا لو أن الإنسان كان هناك، ثم جاءت تلك الكارثة، التي أفنت الديناصورات، فأبادت معها آثار وجوده.

ولم يحاول عاصم الاعتراض، بل تراجع في يأس واضح، فعلى الرغم من أن هذا الافتراض يخالف تمامًا كل النظريات العلمية، حول ظهور الإنسان على الأرض، إلا أنه كان ممكنًا، ولو بنسبة ضئيلة...

حتى مجدي نفسه، بدا متخاذلًا، وهو يغمغم:

ـ ولكننا لم نعثر على أية آثار لوجود الإنسان، في حقبة الديناصورات.

عاد ممدوح يشير بسبابته، قائلًا:

ـ هذا لا يعني حتمية عدم وجوده.

صمت مجدي لحظات، وانفجرت شفتاه، وكأنه يهم بقول شيء ما، ثم لم يلبث أن خفض عينيه، متمتمًا:

ـ بالتأكيد.

بدا عاصم حائرًا مرتبكًا، وهو يغمغم:

ـ ولكن تلك التكنولوجيا....

لم يكمل العبارة، فقال ممدوح في خفوت:

ـ لسنا ندري كيف كان العالم، قبيل كارثة الديناصورات... ولا حتى قبيل طوفان نوح.

ران الصمت لحظات، قبل أن يغمغم عاصم:

ـ هذا صحيح.

التقط ممدوح نفسًا عميقًا، ثم شد قامته، قائلًا في حزم:

ـ بقيت لدينا إذن ثلاثة أسئلة... كيف تعمل؟!.. وماذا تحمي؟!.. ولماذا يقتصر تأثيرها على من يعرضها للخطر؟!..

لم يجبه أحد على ما قاله، وتمتم عاصم في توتر ملحوظ:

ـ هذه التميمة أتت من الفضاء الخارجي.

ارتفع حاجبا مجدي في دهشة، وانعقد حاجبا ممدوح، وهو يقول:

ـ هذا سابق لأوانه.

ثم أشار إلى زميليه، مضيفًا في حسم:

ـ والآن، فلنعد إلى معملنا، ونبدأ في دراسة كيف تعمل... هذا هو المهم الآن.

التقط عاصم القلادة في حرص شديد، وهو يتأملها في حَيرة علمية مربكة، وسار مع زميليه، عائدين إلى معمل الفيزياء، و...

- مهلًا...

استوقفهما عاصم بذلك الهتاف المباغت، فالتفتا إليه في دهشة متسائلة، وقال هو في حماس عجيب:

- تلك الثقوب الثلاثة.

قالها، وهو يشير إلى الثقوب الثلاثة الدقيقة، في قاعدة القلادة، فسأله ممدوح في اهتمام:

- أتظن أنها...

قاطعه عاصم في انفعال:

- إنها شديدة الانتظام، وتصنع فيما بينها مثلثًا متساوي الأضلاع، وهذا ليس أمرًا عشوائيًا بالتأكيد.

تطلَّع مجدي وممدوح إلى الثقوب الثلاثة في اهتمام، وغمغم الأول:

- تبدو لي كحلية جمالية.

وقال ممدوح:

- إنها أدق من أن تكون كذلك.

اعتدل مجدي، متسائلًا:

- وكيف يمكننا الجزم؟!..

أجابه عاصم، وانفعاله لم يخفت بعد:

- بنفس الوسيلة التي استخدمتها.

وتألقت عيناه، وهو يضيف في حماس:

- الميكروسكوب.

* * *

- وكيف هذا؟!...

هتفت يارا بالعبارة في غضب، في وجه مسئول أمن مركز البحوث، والذي بدا من الواضح أنه لا يبالي بثورتها، وهو يقول في صرامة:

- إنه القانون هنا يا سيدتي... لا يمكن السماح بدخولك ورفيقك دون سبب معقول.

قالت في غضب:

- ألا تُعدُّ زيارة الدكتور عاصم سببًا معقولًا؟!..

أجابها بنفس الصرامة:

- هذا ليس فندقًا يا سيدتي.

احتقن وجهها، وهمت بالانفجار في وجهه، ولكنَّ صديقها وليد استوقفها بحركة عصبية، وهو يقول:

- أمِنَ الضروري أن يتصاعد الأمر؟!

استدارت إليه في حدة، وكادت تفرغ ثورتها في وجهه، لولا أن أدركت من نظراته ما يعنيه، فتراجعت متمتمة:

- كلا..

ثم التفتت إلى مسئول الأمن، وقالت في صرامة:

- سأعود.

واجهها الرجل بوجه جامد جاف، فغادرت المكان حانقة، وما إن ابتعدا، حتى قال وليد في عصبية:

- كنت أعلم أنه ليس من السهل الدخول هناك.

قالت في غضب:

- زينب تأتي لزيارته دومًا.

أجابها في حنق:

- إنها خطيبته.

انعقد حاجباها في سخط، وعقدت ساعديها أمام صدرها، وهي تقول في توتر:

- لا بد أن تستعيد زينب تميمتها بأية وسيلة.

سألها في دهشة:

- وكيف هذا؟!..

تجاهلت سؤاله، وهي تقول في صرامة:

- لو ظلت التميمة مع عاصم، فسيستحيل وصولنا إليها، أمّا لو عادت إلى زينب، فربما...

لم تكمل قولها، وكأنما ترى أنه أوضح من أن يكتمل، فنظر إليها وليد لحظات في توتر، قبل أن يزفر في عصبية، قائلًا:

- ابحثي عن الوسيلة وحدك، فلدي اختبار أداء هام، على مسرح السلام.

هتفت مستنكرة:

- هل ستتركني وحدي؟!

أجابها في ضيق:

- أنت دومًا وحدك، ولو خسرت هذا الاختبار، قد لا تتاح لي فرصة ثانية، قبل عام على الأقل.

عادت تعقد ساعديها، هاتفة في غضب:

- هكذا؟!

لوّح لها بيده، وهو يبتعد في خطوات سريعة، قائلًا:

- نعم... هكذا... أراك غدًا.

هتفت به في حدة:

- بل الليلة.

أشار بيده مستسلمًا، وهو يواصل الابتعاد بخطواته السريعة، وعقدت هي حاجبيها أكثر، وهي تتجه إلى طريقها، ولا يشغل ذهنها سوى أمر واحد...

كيف تستعيد زينب تميمتها؟!....

كيف؟!...

❋ ❋ ❋

ـ فلنُظلم الحجرة تمامًا...

قالها عاصم في اهتمام، وهو يضع التميمة تحت ميكروسكوب خـاص، له درجـة تكبير محدودة، ويضبطها جيدًا، ثم يوصل الميكروسكوب بشاشة رقمية، خاصة، وهو يشير إلى مجدي، الذي أغلق النوافذ في إحكام، ثم التفت في لهفة إلى الشاشة، التي يعمل ممدوح على تشغيلها، وهو يغمغم:

ـ أتعشَّم أن يكون التكبير كافيًا.

مضت ثانية واحدة، قبل أن تملأ الشاشة صورة رقمية كبيرة، لتلك الثقوب الثلاثة...

ولثوانٍ طويلة، راح الثلاثة يُحدِّقون في تلك الصورة الرقمية الكبيرة، دون أن ينبس أحدهم بحرف واحد، حتى قطع ممدوح ذلك الصمت، وهو يقول، فيما يشبه الهمس:

ـ إطار شديد الانتظام، وفجوة في المنتصف.

أضاف عاصم بصوت مشابه:

ـ وكل فجوة ذات لون مختلف.

تمتم مجدي مبهورًا:

ـ أحمر، وأخضر، وأزرق.

التقط ممدوح نفسًا عميقًا، وهو يقول:

ـ باختصار، هذه الثقوب الثلاثة هي في واقعها...

اندفع عاصم يكمل في انفعال:

ـ آلة بث بالغة الدقة.

نطقها، فعاد الصمت يخيم على المكان، إلا من صوت لهاث العلماء الثلاثة، من فرط انبهارهم وانفعالهم، حتى قال عاصم في توتر:

ـ ولكن آلات البث، مهما بلغت دقتها، لا تصلح لتكوين صورة هولوجرافية في الهواء... هذا يحتاج إلى نظام ليزر دقيق.

سيطر ممدوح على أعصابه، وهو يقول:

ـ إنها حتمًا ليست آلة بث عادية، لأن من يواجهها فقط يرى ما تبثه، وهذا ليس أمرًا عاديًا.

أومأ عاصم برأسه إيجابًا، وهو يقول مبهورًا:

ـ من الواضح أن الأمر سيحتاج منا إلى وقت طويل.

غمغم مجدي منفعلًا:

ـ وستمنحنا جائزة نوبل... على الأقل.

تبادلوا نظرة صامتة، مفعمة بالمعاني، ثم شد عاصم قامته، وكأنه حتى يستعد لمعركة حاسمة، وقال:

- فلنبدأ باختبار البث نفسه.

سأله ممدوح في اهتمام:

- وكيف هذا؟!

صمت عاصم بضع لحظات مفكرًا، قبل أن يلتفت إليه، قائلًا في حزم:

- نحتاج إلى حجرة مظلمة، وجهاز لرصد الانبعاثات الإشعاعية.

أضاف مجدي في حماس:

- وعدد لا محدود من الساعات.

كان هذا آخر ما تبادلوه من حديث، قبل أن يبدأوا عملهم...

الشاق...

جدًا...

وعلى الرغم من أن زينب لم تكن تدري شيئًا مما يدور حولها، كانت تشعر طوال الوقت بقلق مبهم، أورثها شيئًا من العصبية، لاحظها والداها، فسألتها والدتها برفق، وهي تضمها إليها:

- أما زلتِ تشعرين بالتوتر؟!

سألتها زينب في صوت خافت:

- وهل فارقكما؟!

تبادل الوالدان نظرة مليئة بالتوتر، قبل أن يقول الوالد في خفوت، حمل كل ما يحتمل في أعماقه:

- الواقع أن ذلك المشهد، الذي رأيناه هنا، ما زال عالقًا في ذاكرتي على نحو مخيف، حتى إنه كثيرًا ما يوقظني من نومي.

زفرت والدتها، وقالت بصوت ينافس وجهها شحوبًا:

- أما أنا، فأخشى حتى أن أغمض عينيَّ، حتى لا يهاجمني في نومي.

اعتدلت زينب، قائلة في توتر عصبي:

- لقد أخبركما عاصم أنها مجرد صورة هولوجرافية.

قالت والدتها في شحوب:

- وأنا لم أفهم ما يعنيه.

تنهد الوالد، وقال:

- إنها صورة ثلاثية الأبعاد، تصنعها حزمة من أشعة الليزر، ولها القدرة على التكون في الهواء.

هتفت زينب في توتر أكثر:

- ولماذا لم أرها أنا إذن؟!

تبادل الوالدان نظرة أخرى حائرة، قبل أن يجيبها والدها:

- في الواقع، لا يمكنني أن أجد تفسيرًا لهذا.

وهتفت الأم بشحوبها:

- لقد رأينا ذلك العفريت بمنتهى الوضوح.

أضاف الأب مرتجفًا:

- ومنتهى الرعب.

نقلت زينب بصرها بينهما، وهي تردد:

- ولكن كيف؟!... كيف؟!..

ذلك السؤال هو ما حاول العلماء الثلاثة كشفه، وهم يقفون أمام راصد الأشعة، يتطلَّعون إلى التميمة، التي علَّقوها في خطاف صغير، داخل حجرة مظلمة تمامًا، ومجدي يقول:

- أشعر أننا حمقى، عندما نتعامل باعتبار أن تلك القلادة تدرك ما نفعله.

أجابه عاصم في حزم:

- ولكنها كذلك بالفعل... لقد انطلق برنامج الحماية بها، عندما حاولت وضعها في الحامض.

أضاف ممدوح في حزم:

- لهذا نسعى لتكرار التجربة.

أومأ مجدي برأسه متفهمًا في صمت، وضغط زرًّا صغيرًا، دفع ذلك الخطاف المعلَّق للحركة، في اتجاه حوض الحامض....

وانحبست أنفاس الثلاثة، وهم يتابعون الحركة، حتى توقَّف الخطاف بالتميمة، فوق حوض الحامض تمامًا...

وبضغطة على زر آخر، بدأ الخطاف ينخفض بالتميمة، نحو سطح الحامض...

وينخفض...

وينخفض....

واحتبست الأنفاس أكثر....

وأكثر... وأكثر...

ثم فجأة، حدث ما توقعوه...

لقد تألَّقت التميمة بشدة...

ثم حدث ما لم يتوقعوه قط...

لقد برز ذلك الوحش المجنَّح بالفعل...

ولكن ليس أمام التميمة... بل أمامهم، خلف حاجز الرصد الإشعاعي...

وفي هذه المرة هاجم...

وبعنف...

وصرخ مجدي، عندما أصابته صاعقة..

قوية...

للغاية...

الفصل الثاني عشر

ارتفع حاجبا زينب بمنتهى الدهشة، عندما فتحت باب منزلها، في هذه الساعة المتأخرة، وفوجئت بصديقتها يارا تقف أمامها، قائلة بابتسامة كبيرة:

- مفاجأة... أليس كذلك؟!..

ظلت زينب تحدق فيها لحظات، قبل أن تفتعل ابتسامة، وهي تقول:

-بلى... إنها كذلك بالفعل.

دعت يارا نفسها للدخول، وهي تقول، في مرح مصطنع:

-كنت أزور إحدى قريباتي، بالقرب من هنا، وجذبني الشوق إليك.

أجابتها زينب، في شيء من التحفظ:

-على الرحب والسعة.

خرجت أم زينب، مندهشة بدورها، وهي تقول:

-يارا.... يا لها من مفاجأة!

عانقتها يارا في مرح، وسألتها:

- هناك أمر يلهب فضولي يا أماه... أما زلت تشعرين بالاطمئنان على زينب، في غياب تميمتها؟!..

انعقد حاجبا زينب للسؤال، في حين توترت أمها، وقالت في لهجة شفت عن الانفعال الكامن في نفسها:

- كلا بالطبع.

أجابتها زينب، في صرامة لم تقصدها:

- ليس كل من يحيا على هذه الأرض، يرتدي تميمة تحميه.

قالت يارا في سرعة:

- ولكنك كنت ترتدينها، وهذه مزية تحلم بها كل فتاة.

هتفت أم زينب مؤيدة:

- أليس كذلك؟!..

بدت ملامح الغضب واضحة على وجه زينب، وهي تقول، في عصبية لم تستطع كتمانها:

- أتتناولين قدحًا من الشاي، أم مياهًا غازية؟!

لوَّحت يارا بيدها في مرح، وهي تقول:

- لا هذا ولا ذاك... لقد أتيت لإلقاء التحية فحسب، فلا بد لي من العودة لمنزلي.

قالتها وهي تندفع نحو الباب، وما إن فتحته، حتى استدارت تقول لزينب:

- استعيدي تميمتك.

وأغلقت الباب خلفها، فانعقد حاجبا زينب في ضيق أكثر، في حين التفت إليها أمها، قائلة:

- ألم أقل لكِ؟!..

ولم تنبس زينب ببنت شفة...

ففي أعمق أعماقها، كان يدور سؤال هام...

لماذا؟!...

لماذا أتت يارا لتقول هذا؟!...

لماذا؟!...

في نفس اللحظة، التي نطقت فيها سؤالها، كانت يارا تدلف إلى سيارتها، وتقول في صرامة:

- هنا يبدأ دورك.

اضطرب وليد، الذي يجلس إلى جوارها، وأومأ برأسه، ثم ارتدى قفازين أسودين بأصابع مرتجفة، قبل أن يغادر السيارة...

وأيضًا، دون أن ينبس ببنت شفة...

* * *

- رباه!... هذا حقيقي!!

هتف ممدوح بالعبارة في ذعر، عندما سقط مجدي مصعوقًا، وتراجع في سرعة، أمام وحش التميمة الثائر، حتى إنه ارتطم ببعض أجهزة المعمل، في حين هتف عاصم ذاهلًا:

- مستحيل!... إنه ليس حقيقيًا.

التفت إليه الوحش في تلك اللحظة، وزمجر زمجرة مكتومة، وأدار سيفه نحوه في شراسة، فهتف:

- أنت لست حقيقيًا... أنت خداع للحماية... فقط خداع للحماية.

خُيل لحظة لزميله ممدوح، أن ذلك الوحش سيمزّق عاصم بسيفه تمزيقًا، إلا أنه ظل جامدًا في موقعه، وكأنما تحوّل إلى تمثال جامد، فاعتدل عاصم، وقال يحدثه مباشرة:

- أيًا كان ما تحميه فهو في أمان... نحن لا نضمر لك شرًا.... نحن نسعى فقط للحقيقة... أليس هذا هو الغرض من حماية التميمة، عبر ملايين السنين.

اهتزت صورة الوحش في هذه اللحظة، كما يحدث مع صورة تلفزيونية، في غياب إرسال قوي، فاتسعت عينا ممدوح، وهو يُغمغم:

- مستحيل!

أما عاصم، فقد شد قامته في ثقة أكبر، وقال متابعًا:

- هذا اللغز محفوظ منذ ملايين السنين، حتى يأتي من يمكنه فهمه، ونحن باستطاعتنا هذا، مع كثير من الجهد، فلماذا تحمي نفسك منا؟!... لماذا؟!..

اهتزت الصورة أكثر وأكثر، في نفس اللحظة التي غمغم فيها مجدي في ضعف، وهو يستعيد وعيه:

- ماذا حدث؟!... أين أنا؟!..

التفت إليه ممدوح دون تعليق، ولم يبدُ أن عاصم قد أدرك حتى استعادته لوعيه، وهو يقول لذلك الوحش، في صوت أقرب إلى الضراعة:

- أرجوك.... امنحنا فرصة تحقيق هدفك.... أرجوك.

ظل الوحش يحدّق فيه لحظات، ثم تلاشى فجأة، وكأن لم يكن.

وانتفض جسد ممدوح في عنف، مع تلاشي الوحش، وغمغم:

- رباه!... كان يبدو حقيقيًا تمامًا.

لم يسمعه عاصم تقريبًا، وهو يلتفت في لهفة إلى التميمة، التي خبا تألقها تدريجيًا، حتى تلاشى تمامًا...

وفي وهن، حاول مجدي أن ينهض، مغمغمًا:

- هل اصطدم بي قطار مسرع؟!..

تمتم ممدوح بصوت مرتجف:

- لن تصدق ما حدث.

التقط عاصم نفسًا عميقًا، وقال في حزم متوتر:

- لا بد أن نبدأ فورًا.

سأله ممدوح في دهشة:

- فيمَ؟!..

التفت إليه بعينين متألقتين، وهو يجيب في حزم أكثر:

- في فحص نتائج الانبعاث الإشعاعي.

واتسعت عيون زميليه بمنتهى الدهشة...

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت منتصف الليل، عندما بدأ فحصهم، وعندما دس وليد وهو يرتدي قناعًا بدائيًّا على وجهه، مدية طويلة، عبر ضلفتي شرفة حجرة نوم زينب....

كان شديد التوتر، وهو يقوم بعمل، لم يخطر بباله قط مجرد التفكير فيه، ولكن نصل مديته استطاع التقاط مزلاج الشرفة، فدفعه إلى أعلى في حرص، حتى استجاب له، ثم انتظر لحظة يلهث في قوة، قبل أن يدفع إحدى الضلفتين بمنتهى الحذر والتوتر....

انفتحت ضلفة الشرفة، فتوقف أمامها يلهث لحظات، ثم دفع قدميه دفعًا في صعوبة، ليدلف إلى الحجرة...

كانت زينب مستغرقة في النوم، عندما دنا منها، ولمس عنقها بنصل مديته...

في البداية، فتحت زينب عينيها الناعستين في بطء، ثم لم تلبث عيناها أن اتسعتا في عنف، وأطلقت جزءًا من صرخة، كتمها وليد بكفه في حدة، وهو يقول في عصبية:

- سأقتلك لو نطقت بحرف واحد.

حدَّقت فيه بعينين مرتجفتين كجسدها، وامتزجت ارتجافتها بارتجافة توتره، الذي ملأ صوته، وهو يسألها بكل عصبية:

- أين تحتفظين بمصاغك؟!...

أشارت بسبابة مرتجفة إلى دولابها، فأفلت يده عن فمها، واتجه نحو الدولاب، و...

وهنا أطلقت زينب صرخة مدوية، واختطفت المصباح المجاور لفراشها، وألقته نحوه بكل قوتها...

وانتفض وليد في رعب، ورفع يده يتفادى المصباح، الذي ارتطم به في عنف، وتحطم بدويٍّ مسموع، فهتف في غضب عصبي:

- أيتها الـ...

وانقض على زينب بمديته ذات النصل الطويل، وبكل توتره وانفعاله...

كله...

* * *

- لم أكن أتوقع هذا أبدًا...

غمغم ممدوح بالعبارة مبهورًا، وفغر مجدي فاه في صمت مبهور، في حين قال عاصم، في لهجة أقرب إلى الظفر:

- ولكنني كنت أتوقعه.

واصل ممدوح غمغمته المبهورة:

ـ تلك التميمة لا تبث صورة تقليدية... لقد بثت أشعتها الثلاثة إلى عيون كلٍّ منا مباشرة.

قال عاصم فيما يشبه الارتياح:

ـ أسلوب مدهش ومبتكر... إنه قفزة مدهشة، في تكنولوجيا البث الهولوجرافي...

ثم التفت إلى زميليه، مستطردًا في ارتياح عجيب:

ـ هذا يكفي لتنال جائزة نوبل في العلوم.

تمتم مجدي والانبهار لم يفارقه بعد:

ـ لهذا لا يرى ذلك الوحش سوى من يُرسل هو الصورة إلى عينيه فحسب.

وصمت لحظة، ثم أضاف في حَيرة مضطربة:

ـ ولكن ذلك الوحش أصابني بصاعقة.

ابتسم عاصم، وهو يقول:

ـ خطأ يا صديقي... انظر ما رصدته الأجهزة... شعاع أصفر منفرد، انطلق من التميمة، نحوك مباشرة... إنها وسيلة حماية إضافية يا رجل.

تساءل ممدوح:

ـ ولكن كيف تفعل تلك التميمة الصغيرة كل هذا؟!..

التفت عاصم إلى زميليه، وقال في حماس عالم:

ـ لقد اتفقنا من قبل على أن تلك التميمة تحوي تكنولوجيا، تفوق كل ما عرفناه في عالمنا، على الرغم مما نشهده حولنا من تطور... ولقد نشأت لدينا منذ زمن قريب تكنولوجيا أطلقنا عليها اسم «نانوتكنولوجي»، أي تكنولوجيا المنمنمات، وهي التي سمحت بوجود كمٍّ ضخم من المزايا، في هاتف محمول بالغ الصغر، ولأن من صنعوا هذه التميمة يفوقوننا تكنولوجيًّا بكثير، فربما كانت لديهم تكنولوجيا أكثر دقة وأصغر حجمًا... ربما ميكروتكنولوجي، أو أمر مشابه، وهذا سيسمح لهم بتزويد قيمة صغيرة بهذا الحجم، بقدرات تبدو لنا خرافية.

تمتم ممدوح:

ـ هذا يجيب نصف سؤالي.

أجابه عاصم بنفس الحماس:

ـ لقد بلغت تكنولوجيتنا شأنًا كبيرًا، في علم الذكاء الصناعي، فما بالك بتكنولوجيتهم؟!...

صمت الثلاثة بضع لحظات، وراحوا يتطلَّعون إلى التميمة في صمت، قبل أن يُغمغم مجدي:

ـ هذا يُبقي لنا أهم سؤال.

ثم التفت إليهما، مستطردًا في اهتمام مرهق:

ـ كل ما تفعله التميمة من أجل حماية شيء ما، فما هو بالضبط؟!..

وكان هذا بالفعل هو السؤال الأخطر...

ما الذي تحاول تلك التميمة حمايته طوال الوقت؟!..

فإجابة هذا السؤال، ستجيب عن السؤال المخيف.

من أين أتت؟!..

وكيف؟!...

ولماذا؟!..

كانت رءوس الأسئلة نفسها، التي راحت تطرحها يارا على نفسها، وهي تجلس في سيارتها، على مقربة من منزل زينب، والتوتر يلتهم كل ذرة من كيانها...

تُرى هل سينجح وليد فيما أسندته إليه؟!..

هل سيمكنه إثارة رعب زينب، حتى تُصرَّ على استعادة تميمتها؟!...

هل؟!...

عادت تغرق في أحلام الثراء والقوة والشهرة، التي خلبت لُبها، منذ تخيلت نفسها تمتلك تلك التميمة...

إنها لن تصبح آمنة ضد أي اعتداء فحسب، بل وستحوز شهرة عالمية، عند إعلانها كشفًا مذهلًا كهذا، وصفه عاصم لـزينب بأنه أخطر لغز عرفه الكون...

أغلقت عينيها، وحاولت الاسترخاء في مقعدها، والغوص مع أحلامها، و...

ـ إننا محظوظون الليلة بالتأكيد...

صدمت العبارة أذنها، فاعتدلت بحركة حادة، وحدَّقت في ثلاثة شبان، يقفون محيطين بسيارتها، وأحدهم يمد يده لفتح الباب المجاور لها، وعلى وجهه نظرة شهوانية مخيفة، مع ابتسامة مقيتة...

قفزت يدها في سرعة إلى زر إغلاق أبواب السيارة، وهي تصرخ:

ـ ماذا تريدون مني؟!..

حاولت أن تدير محرك سيارتها، لتفرَّ من المكان، ولكن أحدهم تحرك في سرعة، ومزَّق إطارات السيارة اليُمنى، فعادت تصرخ، وتصرخ، في نفس الوقت الذي حمل فيه ثانٍ قضيبًا حديديًا ضخمًا، وهوى به على الزجاج الأمامي للسيارة...وبكل قوته..

لم تمضِ ثوانٍ قليلة، على صرخة زينب، وذلك الاضطراب في حجرتها، حتى كان والدها يقتحم الحجرة بكل قوته، وهو يهتف:

ـ زينب.... ماذا حدث؟!..

صرخت أمها من خلفه، عندما شاهدت وليد بقناعه الأسود، والمدية ذات النصل الطويل في قبضته، واتسعت عينا والدها من فرط المفاجأة، وفقد وليد أعصابه، فاندفع يعدو نحو الشرفة المفتوحة، ولكنَّ زينب حملت المصباح الثاني، وألقته نحوه بكل قوتها....

وعلى الرغم من ارتطام المصباح بالشاب في عنف، إلا أن خوفه

جعله يثب من الشرفة بكل قوته، وعلى الرغم من ارتفاعها، هبط على قدميه في الحديقة، ثم انطلق يعدو كالمسعور، نحو النقطة التي اتفق مع يارا على أن تنتظره فيها....

وفي حجرة زينب، هتفت أمها مرتجفة:

- ماذا يحدث لنا؟!

أجابتها زينب في انفعال متوتر:

- إنه لص، أراد مصاغي.

هتف أبوها، وهو يعود من الشرفة في غضب:

- لقد أفلت... كنت أتمنى لو أعتصر عنقه بيدي.

أضافت أمها مضطربة:

- لقد نجوتِ منه بأعجوبة.

تطلَّعت إليها زينب لحظات، وهي تشاركها اضطرابها، ثم لم تلبث أن تماسكت، وقالت في شيء من الحزم:

- وبدون تلك التميمة...

* * *

- وكيف هذا؟!...

ألقى مجدي السؤال على عاصم، في اهتمام مشوب بالحَيرة، فأجابه عاصم، بذلك الحماس العلمي، الذي ملأ كيانه:

- دعنا نفحص أحجار السلسلة، بنفس أسلوب التكبير الميكروسكوبي الرقمي الفائق، ولنرَ ماذا يمكن أن نجد...

غمغم ممدوح، وهو يبدأ العمل فعليًّا:

- بعد كل ما مررنا به، لن يدهشني لو أنها تحوي عالمًا بأكمله داخلها.

لم يعلِّق أحدهما بحرف واحد، وإنما بدأ الثلاثة العمل على الفور.

وفي حوالي الثانية صباحًا، بدأ الميكروسكوب الرقمي عمله، ووقف الثلاثة أمام شاشته الضخمة مبهورين.

فالمدهش أن ممدوح لم يكن مبالغًا كثيرًا، عندما قال إن هناك عالَمًا كاملًا داخل تلك الأحجار... فالتكبير الرقمي الفائق أظهر صورة مدهشة...

كانت كل قطعة، من تلك الأحجار الدقيقة، تحوي ما يُشبه شبكة كاملة، من خلايا ميكروسكوبية بالغة الدقة...

وبعد دقيقة كاملة، من الانبهار الذاهل، تمتم عاصم:

- كل منها أشبه بقرصٍ صلب متناهي الدقة.

غمغم ممدوح، وهو يحمل المشاعر نفسها:

- أراهن أن كلًّا منها تحوي كمًّا هائلًا من المعلومات.

التقط مجدي نفسه في صعوبة؛ من فرط الانبهار، وتمتم:

- على الأقل.

عاد ذلك الصمت الذاهل المبهور يغلفهم بضع لحظات أخرى، قبل أن يُطلق ممدوح زفرة قوية، قائلًا:

- ولكنَّ هذا لا يعني شيئًا.

التفت إليه عاصم في دهشة مستنكرة، قائلًا:

- كل هذا لا يعني شيئًا؟!

أجابه في أسف:

- مهما كان ما تحويه تلك الأحجار من معلومات، ومهما كانت قوة هذه التميمة، فلا توجد تكنولوجيا على وجه الأرض، قادرة على استخلاصها، من خلايا بهذه الدقة المذهلة.

قال عاصم في حزم:

- ولكنه حافز جيد للعمل.

ثم انتبه إلى أمر ما، فأضاف مستعيدًا حماسه العلمي:

- ثم إن تلك التميمة تحوي وسيلة تشغيل مخازن المعلومات الميكروسكوبية هذه.

التفت إليه زميلاه في دهشة، وغمغم مجدي:

- ومن أدراك؟!..

هزَّ كتفيه، قائلًا في ثقة:

- من غير المنطقي أن تحافظ على شيء كهذا، عبر ملايين السنين، دون أن تترك مع المعلومات وسيلة لتشغيلها.

كان قوله يحمل شيئًا من المنطق، لذا فقد تبادل زميلاه نظرة صامتة، قبل أن يقول ممدوح:

- لو أن ما تقوله صحيح، فسيعني هذا أننا قد نصبح أشهر علماء القرن.

أشار عاصم بسبابته، قائلًا:

- وكل ما سبقه من قرون.

عبارته الأخيرة كانت مشجعة للغاية، حتى إن أجسادهم المرهقة عادت تشعر بالحماس، فقال عاصم في لهفة:

- هل نواصل؟!!..

تبادل ممدوح ومجدي نظرة صامتة، مُفعمة بالإرهاق، قبل أن يقول الأخير، وهو يتثاءب في قوة:

- لست أظننا نستطيع هذا... إنها الرابعة والنصف صباحًا، وسيبدأ عملنا الرسمي بعد أربع ساعات من الآن، وأشعر بحاجة مُلحَّة للنوم والراحة.

تمتم ممدوح وهو يخلع معطفه العلمي:

- وأنا أشاركك هذا.

التقط عاصم نفسًا عميقًا، وألقى نظرة آسفة على التميمة، ثم غمغم:

- فليكن... سنكمل غدًا.

أجابه ممدوح، وهو يستعدُّ للانصراف:

ـ خفف من حماسك يا رجل... ما نواجهه ليس عمل يوم وليلة... إننا أمام لغز هائل، وتكنولوجيا أكثر هولًا، وهذا قد يستغرق سنوات لتجاوزه... اهدأ.

أومأ عاصم برأسه متفهمًا، وألقى نظرة أخرى على التميمة، ثم خلع معطفه بدوره، وغمغم:

ـ سأنام هنا.

نظرا إليه في دهشة معترضة، وهمَّ مجدي بقول شيء ما، ولكن ممدوح استوقفه، وهو يُغمغم:

ـ لا بأس.

انصرفا، واختار عاصم بقعة خالية في الركن، تتيح له مراقبة التميمة، ورقد وهو يتطلَّع إليها، قائلًا:

ـ تُرى أي سر تخفينه، وأي كنز تعملين على حمايته؟!..

كان الفضول يلهب أعصابه، إلا أن النوم غلبه، وسرعان ما راح في سبات شديد العمق...

وما إن انتظمت أنفاسه، حتى عادت التميمة تتألَّق في بطء...

ولثوانٍ، ظل تألُّقها ثابتًا، ثم لم يلبث أن بدأ يتذبذب على نحو منتظم...

وفي هذه المرة، لم تتألَّق وحدها...

لقد بدت تلك الأحجار الصغيرة تتألَّق أيضًا...

وفي فراغ المعمل، وفي غياب أي شاهد، راحت ظاهرة مذهلة تحدث...

لقد راحت تلك التميمة تبث صورًا هولوجرافية متتالية، وبسرعة خرافية...

صور من زمن ما قبل التاريخ المكتوب...

وعبر كل الأزمان والعصور...

وأخيرًا، بدأت تبث ذلك المشهد، الذي حدث في المعمل، منذ ساعات قليلة...

كانت وكأنها تسترجع ذاكرة ما...

ذاكرة رقمية...

بالغة الدقة....

والغرابة.

الفصل الثالث عشر

على الرغم مما مرت به بالأمس، شعرت زينب بانتعاش كبير، وهي تذهب إلى مستشفاها في الصباح...

كان سر انتعاشها هو أنها قد تحررت أخيرًا، من سيطرة تلك التميمة، التي أسرت عقول أسرتها منذ أجيال...

لقد نجت من سارق عصبي من دونها...

نجت بفضل الله سبحانه وتعالى وحده...

إنه عز وجل، الحماية الوحيدة المؤكدة، في الكون كله...

شعرت أنها أكثر خفة ونشاطًا، عندما بلغت هذا الحد من تفكيرها، وارتسمت على شفتيها ابتسامة كبيرة، لا توحي أبدًا بما واجهته في الليلة السابقة...

وعندما وصلت إلى المستشفى، كانت بادية المرح على نحو ملحوظ، وهي تلقي التحية على كل من تلتقي به، حتى إنها لم تنتبه إلى وجوههم الشاحبة، ونظرات الإشفاق التي يلاحقونها بها...

بل لم تنتبه حتى إلى أن أحدًا منهم لم يرد تحيتها، حتى بلغت حجرة الطبيبات، و...

ـ صباح الخير يا دكتورة زينب..

فاجأها ذلك الصوت الرجولي، وتلك الملامح الخشنة، التي استقبلتها في حجرة الطبيبات، التي يفترض ألا يتواجد الرجال بها، فقالت في توتر:

ـ من أنتم؟!..

كانوا ثلاثة رجال، لم ترهم من قبل قط، وبصحبتهم وكيل المستشفى، الذي وقف صامتًا شاحبًا مرتبكًا، في حين تقدم أحد الثلاثة، وأبرز بطاقة هوية رسمية، وهو يقول:

ـ المقدِّم أنور... من البحث الجنائي.

رددت في توتر مندهش:

ـ البحث الجنائي؟!... ولكننا لم نبلغ بعد عما حدث.

سألها في اهتمام:

ـ هل تقصدين محاولة السرقة، والاقتحام بالقوة؟!..

ارتفع حاجباها في انبهار، وهي تغمغم:

ـ رباه!... هل علمتم بهذه السرعة؟!..

تبادل الجميع نظرة صامتة، قبل أن يقول:

ـ الواقع أننا قد ألقينا القبض على القاتل.

هتفت في دهشة مصدومة:

ـ القاتل؟!.. إنه مجرد سارق.

أومأ برأسه إيماءة غير ذات معنى واضح، وهو يقول:

ـ لقد اعترف بهذا الجزء، وأقر بأنه قد اقتحم منزلك، وتظاهر بمحاولة سرقتك.

تضاعفت دهشتها، وهي تقول:

ـ تظاهر؟!..

أجابها المقدِّم على الفور:

ـ الواقع أنه يؤكد أن هذا كان بإيعاز من شريكته؛ حتى تشعرين بالخوف، وتُصرِّين على استعادة حلية ما... تميمة على حد قوله.

ارتفع حاجباها، في دهشة بلغت ذروتها، وهي تحدِّق في وجه المقدم، وقد انعقد لسانها، وعجز عن النطق تمامًا، فأكمل هو:

ـ ولكن يبدو أنه قد اختلف مع شريكته، بعد فشله في السرقة، وتشاجرا، فحطم رأسها بمطرقة.

تراجعت زينب من هول ما تسمعه، وجف حلقها على نحو غير طبيعي، وهي تسأل بصوت مبحوح:

ـ قتلها؟

أومأ برأسه إيجابًا، وقال:

- إنها زميلتك، ولهذا نرغب في الحصول على بعض المعلومات منك.

رددت بصوت فارق حلقها بالكاد:

- زميلتي؟!..

أجاب في حزم:

- الدكتورة يارا الـ.... .

ولم تسمع باقي عبارته...

لقد سقطت فاقدة الوعي...

مباشرة...

في نفس اللحظة تقريبًا، انتفض جسد عاصم، عندما لمسته يد زميله مجدي، الذي قال في صوت خافت:

- عاصم.. أما زلت نائمًا؟

هبَّ عاصم جالسًا بحركة حادة، وحدَّق في زميليه لحظة، قبل أن يهتف بهما:

- هل عدتما؟!

أشار ممدوح إلى ساعته، قائلًا:

- إنها التاسعة والربع... موعد العمل الرسمي.

حدَّق فيهما عاصم لحظات أخرى، ثم التفت يُلقي نظرة متوترة على التميمة، التي استقرت هادئة في مكانها، وقال:

- حلمت بها طوال الليل.

غمغم مجدي:

- كلنا هذا الرجل.

نهض عاصم يفرك عينيه، وهو يقول:

- أظنني أعلم الوسيلة المثلى، للتعامل مع هذه التميمة.

سأله ممدوح في لهفة:

- وما هي؟!

أشار إلى التميمة، مجيبًا في حسم:

- نتحدث إليها.

نظرا إليه في دهشة، ثم إلى بعضهما بعضًا، قبل أن يقول مجدي في تعاطف:

- أقترح أن تغسل وجهك أولًا، وتتناول قهوتك، ثم...

قاطعه عاصم في حدة:

- هذا ليس هذيانًا.

وذهب بالفعل ليغسل وجهه، في حوض المعمل، متابعًا:

- تلك التميمة تتفاعل معنا طوال الوقت، وهذا يعني أنها حالة فائقة للغاية من الذكاء الصناعي، وعندما تحدثت معها بالأمس، استجابت على نحو ملحوظ، فلماذا لا نكرر هذا؟

غمغم مجدي:

ـ لست أدري... ربما.

وبدا ممدوح شاردًا إلى حد عجيب، فسأله عاصم، وهو يجفف وجهه:

ـ ما الذي يجذبك إلى هذا الحد؟!

أشار ممدوح إلى مؤشرات شاشة الفحص الإشعاعي، وهو يقول بأنفاس مبهورة:

ـ الجهاز سجل نشاطًا فائقًا، بعد انصرافنا أمس.

انتقل انبهاره إلى زميليه، وهما يديران رأسيهما إلى تلك التميمة، قبل أن يقول عاصم في خفوت انفعالي:

ـ دعنا نرى ما سجله.

ودون تبادل حرف إضافي، وقف الثلاثة أمام شاشة الجهاز، والتقط ممدوح نفسًا عميقًا؛ في محاولة لتهدئة نفسه الثائرة، قبل أن يضغط زر تشغيله في حذر...

وبدأ الجهاز عمله..

وراحت الشاشة تعرض ما سجله ليلًا...

واتسعت العيون عن آخرها...

وارتجفت الأجساد...

ولهثت الأنفاس...

فما يعرضه الجهاز كان مذهلًا...

وإلى أقصى حد...

* * *

ـ هل تعرفينه؟!..

ألقى المقدِّم أنور السؤال على زينب، وهو يشير إلى وليد، في قسم الشرطة، فأجابت، والمرارة لم تفارق نفسها بعد:

ـ إنه وليد... صديق يارا.

كان يرتدي الثياب نفسها، التي رأتها في حجرتها أمس، باستثناء القناع والقفازين، وكانت المدية ذات النصل الطويل، موضوعة على منضدة قريبة، وإلى جوارها مِطرقة ملوثة بالدم..

ولقد بكى وليد في حرارة، وهو يقول منهارًا:

ـ سامحيني يا زينب... أرجوكِ سامحيني... كانت فكرة يارا منذ البداية... لقد أرادت الحصول على تلك القلادة بأي ثمن، ورأت أن سرقتها من منزلك، أسهل بكثير من اقتحام معمل الدكتور عاصم... كانت فكرتها... أقسم لك.

التفت المقدِّم أنور إليها، يسألها في اهتمام:

ـ ما قيمة تلك التميمة بالضبط؟!... أهي من الماس أو الذهب الخالص مثلًا؟!...

هزَّت رأسها نفيًا في بطء، وهي تجيب، دون أن ترفع عينيها عن وليد:

- مطلقًا... إنها قلادة بسيطة، ورثتها أمي عن جدتها، مع خرافة تقول إنها تحمي من يرتديها.

والتقطت نفسًا عميقًا، قبل أن تلتفت إليه، مضيفة:

- ولست أدري كيف يمكن أن تؤمن طبيبة مثلها، بخرافات كهذه.

هزَّ كتفيه، وأشار إلى وليد، قائلًا:

- ربما يؤمن بها هو أيضًا؛ ولهذا قتلها؛ ليفوز بها وحده.

هتف وليد:

- لم أقتلها... أقسم إنني لم أقتلها... لقد هربتُ من منزل زينب، عندما استيقظ والداها، وجريت إلى سيارتها، في المكان الذي اتفقنا على أن نلتقي فيه، فوجدتها صريعة هناك، ولم أجد أثرًا للسيارة.

ثم بدا كأنه قد تذكَّر شيئًا، فهتف في لهفة:

- إنكم لن تجدوا بصماتي على تلك المطرقة.

هزَّ المقدَّم أنور كتفيه، وقال:

- لقد كنت ترتدي قفازين، عندما ألقينا القبض عليك... هل تذكر؟!

اتسعت عينا وليد في ذعر، ثم انهار مرددًا:

- لم أقتلها... أقسم لكم... لم أقتلها.

ظل يرددها، حتى اصطحب المقدَّم زينب خارجًا، وسألها في اهتمام:

- وأين تلك التميمة، التي فعلا من أجلها كل هذا؟!

أجابته، في شيء من الشرود:

- مع خطيبي عاصم.

سألها:

- ولماذا؟!

التفتت إليه لحظة بتلك النظرة الشاردة، ثم قالت في حزم:

- كانت تحتاج إلى إصلاحات بسيطة، وأراد أن يتولى هذا.

بدا من الواضح أنه لا يميل لتصديقها، ولكن التميمة لم تكن دليلًا من أدلة الاتهام، في حادثة القتل، لذا فقد قال في خفوت:

- هذا شأنك.

ثم اعتدل، مستعيدًا حزمه، ومضيفًا:

- ستثبت كل هذا في أقوالك، ثم يمكنك الانصراف.

ولم تحاول هي التعليق بحرف واحد..

أي حرف...

ولو أنها استطاعت رؤية ما يحدث في المعمل، في تلك اللحظة، لما وجدت هناك فارقًا كبيرًا...

لقد ساد هناك أيضًا صمت مهيب ثقيل، بعد أن انتهى الزملاء الثلاثة من مشاهدة ما سجله جهاز الرصد الإشعاعي أمس...

صمت طال، وربما أكثر مما ينبغي، قبل أن يغمغم عاصم مبهورًا:

- هل تدركون ما وجدناه يا رفاق؟!

أجابه ممدوح، بنفس الأنفاس المبهورة:

- تلك التميمة سجلت كل ما واجهته، منذ ملايين السنين، وحتى ليلة أمس.

ارتجفت شفتا مجدي لحظات، قبل أن ينجح في أن يقول:

- لقد رأينا على التوِّ أحداثًا تاريخية حقيقية.... رأينا ما لم يره أحد من قبل.

تمتم عاصم:

- تُرى أتكفي جائزة نوبل لكشف كهذا؟!

تنهد ممدوح، قائلًا:

- سينشئون جائزة خاصة من أجلنا.

عاودوا ذلك الصمت المهيب لدقيقة أخرى، قبل أن يقول عاصم:

- ولكن كيف نثبت هذا؟!

سأله مجدي:

- ماذا تعني؟!

أجابه في قلق:

- تلك التميمة بثت ما لديها بقرار خاص، ونحن لا ندري كيف يمكننا أن ندفعها لبثه مرة ثانية.

قال ممدوح في سرعة:

- لدينا ما سجله الجهاز.

هزَّ عاصم رأسه نفيًا، وقال:

- إنها صور هولوجرافية، يمكننا بثها من أجهزة ليزرية، ربما في نفس الحجم تقريبًا.

لهث مجدي من فرط الانفعال، وهو يقول:

- أتعني أننا قد توصَّلنا إلى الكشف الخرافي، ولا يمكننا أن ننقله إلى العالم!

غمغم عاصم:

- للأسف.

هتف مجدي في حنق:

- مستحيل!... لماذا كان كل هذا الجهد إذن؟!

تمتم ممدوح في أسف:

- ما زال لدينا الكشف الأساسي.... التميمة نفسها، ومادتها، وسلسلة الأحجار الصغيرة.

هتف مجدي معترضًا:

ـ هذا لا يقارن بما توصلنا إليه فعليًا.

انعقد حاجبا عاصم في شدة، وبدا عليه التوتر، ثم اتجه نحو تلك التميمة مباشرة، وواجهها، قائلًا:

ـ لا بد أن تساعدينا.... لا قيمة لكل ما تحويه، وكل ما تحمينه منذ ملايين السنين، ما لم يعلم العالم به... ساعدينا... ساعدينا.

مضت لحظات من الصمت، بعد أن نطق كلماته هذه على نحو بائس...

ثم فجأة، تألَّقت التميمة...

تألَّقت كما لم تتألَّق من قبل...

لقد بدأت أشبه بمصباح صغير، وكأن معدِنها البارد قد صار زجاجًا شفافًا، ينفذ ضوءًا ينبعث من أعماقها..

ثم فجأة، بدأت في البث...

تراجع عاصم بحركة حادة، في حين تراصت رموز عجيبة في الهواء، مع صوت ينطق لغة غير معروفة....

ثم راحت تلك الرموز تتبدل، ومنطوق الكلمات يتغير، من لغة إلى أخرى، حتى غمغم مجدي فجأة مبهورًا:

ـ إنها الهيروغليفية.

كانت رموز لغة المصريين القدامى تتراص في الهواء، مع صوت ينطق شيئًا غير مفهوم...

وبعدها ظهرت حروف لاتينية، وبدأ ذلك الصوت يتحدث باللاتينية...

ثم اليونانية...

والقبطية...

والإنجليزية القديمة....

ثم فجأة بدت أحرف عربية واضحة، والصوت يقول:

ـ هذا أنتم.

هتف الثلاثة في آن واحد:

ـ العربية.

وهنا تلاشت تلك الأحرف الهولوجرافية، واختفى الصوت، فقال ممدوح مبهورًا:

ـ إنها أشبه باختيار اللغة العربية، عند إعداد أي برنامج جديد.

غمغم عاصم:

ـ إنه كذلك.

إثر عبارته، انطلق انبعاث جديد من التميمة...

وفي هذه المرة، ظهرت صورة واضحة في الهواء...

صورة لامرأة، لها ملامح جميلة، مع بروز أكثر في الجبهة، واتساع أكبر في العينين...

وبلغة عربية واضحة، لا تتفق مع حركات الشفاه، بدأت تقول:

ـ عندما يبدأ هذا البث، فهو يعني أن العالم قد استعاد تطوره، وأن حضارة جديدة قد ظهرت عليه، بإمكانهم فهم واستيعاب كرة المعلومات الزمنية.

غمغم مجدي مبهورًا:

ـ أتقصد التميمة؟!

أشار إليه زميلاه بالصمت، وهما يتابعان المرأة، التي واصلت دون توقف:

ـ هذه الكرة هي أملنا الوحيد، في أن يعلم العالم يومًا أننا كنا هنا، لأن العالم من حولنا ينهار ويفنى؛ بسبب الطمع والجشع والتناحر... ولقد صنعنا كرة المعلومات الزمنية هذه، وقد أودعناها كل علومنا وفنوننا وآدابنا، ونماذج من سبل معيشتنا وحياتنا.

اختفت صورتها، وبدت صورة التميمة، تضاء منها أجزاء خاصة مع الشرح:

ـ لقد صنعناها من مادة ذلك الجسم، الذي سقط من الفضاء، والذي كان السبب في دمار الحضارة كلها... وهي تحوي نظم التشغيل، والمعلومات الأساسية، أما القلادة، التي صنعناها لتناسب أي شكل بدائي، فهي خلايا ذاكرة معلوماتية، ذات سعة هائلة، يحوي ثلثها كل ما لدينا، والثلثان لتسجيل ما سيحدث في العالم، بعد فناء حضارتنا... ولذلك الفناء قصة.

اختفت صورة القلادة، وظهرت صورة لكوكب الأرض، وجسم معدني منتظم يتجه نحوه، مع استمرار الصوت:

ـ لقد رصدنا ذات يوم هذا الجسم، الذي من الواضح أن كائنات عاقلة قد صنعته، وتوقعنا منطقة سقوطه، ولقد سقط بالفعل في جزء صحراوي من قارتنا، التي كانت أكثر قارات الكوكب تقدمًا وحضارة.

تحوَّلت الصورة الآن إلى علماء في معمل شديد التطور، يدرسون ذلك الجسم، والصوت يتابع:

ـ قام علماؤنا بفحص ذلك الجسم، وكشفوا أنه يحوي تكنولوجيا شديدة التقدم... تكنولوجيا قادرة على القفز بنا لقرون من العلم، في ضربة واحدة.

واكتسب الصوت رنة حزينة، وهو يكمل، وصورة حروب هائلة مرتسمة في هواء الحجرة:

ـ ولكن للأسف، كل الدول الأخرى طمعت بالفوز بهذه الطفرة العلمية؛ نظرًا لأن من يمتلكها سيسود العالم كله... ومن هنا بدأ التشاحن والتطاحن، والحروب التي أبادت الملايين، حتى قررت كل أمة اللجوء إلى الحل الأخير، واستخدام أسلحة تدمير شاملة...

ظهرت صورة انفجار هائل، جعل الزملاء الثلاثة يتراجعون في خوف، قبل أن يتابع الصوت في أسى:

ـ ثم كان ذلك الانفجار، الذي أحال البحار إلى أتون ملتهب، وأطلق إشعاعات قادرة على إفناء كل حياة على ظهر الكوكب خلال عام واحد.

تمتم مجدي:

ـ رباه!... أهذا ما يفعله التطور.

ظهرت صورة خراب رهيب على الشاشة الهولوجرافية، وذلك الصوت يكمل في مرارة:

ـ فني الكوكب أو كاد، وبدأت قارتنا تغوص في المياه، ولم يكن هناك مكان يمكن أن نذهب إليه، وأدركنا أن النهاية آتية لا ريب، فما كان منا إلا أن قررنا نقل حضارتنا لمن قد يأتي بعدنا، وتحذيره من مغبة التطاحن على ربح ما ليس لأحد... كان كل أملنا أن يأتي يوم ما، تعود فيه حضارة كبيرة إلى الكوكب، وتستطيع التعامل مع خلايا الذاكرة المجهرية، وتعلم ماذا كنا، وكيف أصبحنا... وما دام هذا البث قد بدأ، فهو يعني أن تلك الحضارة قد أتت، وكل ما نأمله هو أن تدوم، وألا تقع فيما وقعنا نحن فيه.

اختفت الصورة، وظهرت صورة ذلك الوحش، وهي تكمل:

ـ ولقد زودنا كرة المعلومات الزمنية بمبرد خاص، حتى لا تلتهمها تلك الحمم، التي سادت الكوكب، وببرنامج حماية ذكي، يمكنه الحفاظ على وجودها، حتى تحين لحظة إفصاحها عن أسرارها.

تلاشت صورة الوحش، وظهرت صورة الخراب مرة أخرى، وذلك الصوت يبدأ في الخفوت قائلًا:

ـ المهم أن تحسنوا الاستفادة مما أصابنا... وأن تحذروا... احذروا... احذروا... احذروا.

راح الصوت يتلاشى تدريجيًا، وهو يردد الكلمة نفسها، والمشهد يبتعد، ويرتفع...

ويرتفع...

ويرتفع...

ومع ارتفاعه، بدأت ملامح المكان تتضح، وإحداثياته تتحدد، و...

وفجأة، اتسعت عيون الثلاثة عن آخرها، وهتفوا في آن واحد، بكل انفعال وذهول الدنيا:

ـ «أطلانطس»؟!

وكانت هذه هي أكبر مفاجأة...

على الإطلاق.

الفصل الرابع عشر... والأخير

اتسعت عينا أم زينب بشدة، وهي تحدِّق في وجه هذه الأخيرة، قائلة بأنفاس مبهورة:

- ماتت؟!... وهي التي خططت لذلك الرعب، الذي عشناه أمس؟!.. كيف يمكن أن أصدق هذا؟!

غمغم والدها في أسف:

- لهذا أتت متأخرة ليلة أمس... أرادت أن تلقي سمها أولًا، حتى تربط تحذيرها بما سيحدث بعدها!!... أي زمن هذا الذي نحيا فيه؟!...

أجابته زينب، في حزم عجيب:

- الزمن الذي لم نعد نشعر فيه بالأمان، والذي، وبدلًا من أن نلجأ فيه إلى خالقنا عز وجل، ليمنحنا الإيمان به أماننا، رحنا نبحث عن تمائم وشعوذات نتشبث بها.

قالت والدتها مستنكرة:

ـ ولكن تلك التميمة بالفعل كانت...

قاطعتها في حزم:

ـ كانت السبب في كل هذه المأساة!

تنهد والدها، قائلًا:

ـ أنت على حق.

التقطت زينب نفسًا عميقًا؛ لتحسم أمر نفسها، قبل أن تقول في حسم:

ـ لن أرتدي تلك التميمة مرة أخرى.

لم تعترض والدتها، وإنما تطلَّعت إليها لحظة في صمت، قبل أن تُخفض عينيها، قائلة في خفوت مرتجف:

ـ الواقع أنني لن أحتمل مجرد وجودها في المنزل، بعد ما شاهدته منها.

أضاف والدها في حزم:

ـ أتفق معك تمامًا في هذا.

ثم التفت إلى ابنته، متسائلًا:

ـ ولكن ماذا سنفعل بها؟!... هل نلقيها في النيل، أم نحتفظ بها داخل خزانة بنكية؟!..

أجابته زينب في سرعة:

ـ هذا ليس قراري.

ثم استعاد صوتها حزمه، وهي تضيف:

ـ إنه قرار عاصم.

في اللحظة التي نطقتها، كان عاصم يجلس مع زميليه في معمل الفيزياء، وقد غلبهم صمت عجيب..

كان كل منهم غارقًا في أفكاره، التي ربما تختلف كثيرًا عن أفكار رفيقيه...

ثم كان مجدي أول من تحدث، وهو يغمغم:

ـ تصورت طيلة عمري أن «أطلانطس» هذه خرافة.

أضاف ممدوح:

ـ على الأقل، لم يكن دمارها منذ زمن سحيق إلى هذا الحد..

نقل عاصم بصره بينهما، وهو يقول في خفوت، يحمل رصانة واهتمام عالم حقيقي:

ـ «أطلانطس» كانت مجرد جزء، في سياق محاورة للفيلسوف «أفلاطون»، عُرفت باسم «محاورة كريتياس»، عام ٣٣٥ ق.م، وقال فيها إن المعلومات عنها محفوظة في سجلات مصرية قديمة، ولكن أحدًا من الأثريين لم يعثر على تلك السجلات قط... ولقد ظل الكل يعتبرها مجرد خيال، حتى عثر الأثري الألماني «هنريش شليمان»، على بقايا مدينة طروادة عام ١٨٧١م، وهي المدينة التي ذكرها «هوميروس» في ملحمتيه الشهيرتين «الإلياذة» و«الأوديسا» عام ٨٥٠ ق.م، مما دفع عالمًا آخر،

وهو سير «آرثر إيفانز»، إلى البحث عن قصر التيه، الذي كان يعيش فيه الوحش الأسطوري «المينوطوروس»، والذي كان يُعتبر بدوره خيالًا، حتى عثر «إيفانز» على القصر، وأثبت وجود تلك الحضارة، التي نمت منذ أربعة آلاف وخمسمائة عام تقريبًا.

غمغم مجدي في ضيق:

- ما الذي تريد أن تقوله بهذه المحاضرة الطويلة؟

أجابه في هدوء:

- إنه لا يوجد ما يجزم بأن «أطلانطس» كانت حقيقة، أو دربًا من خيال الفيلسوف «أفلاطون».

صمت لحظة، ثم استدرك، مشيرًا إلى التميمة:

- أو لم يكن يوجد، حتى ساعة مضت.

تبادلوا نظرة صامتة أخرى، ثم تساءل ممدوح في خفوت:

- والآن، ماذا ينبغي أن نفعل؟

ظل مجدي صامتًا، وكأنما لا يجرؤ على الإفصاح عن رأيه، في حين قال عاصم:

- نستوعب الدرس.

سأله مجدي، في صوت متخاذل:

- بمعنى؟!..

أجابه في حزم، دون أن يرفع عينيه عن التميمة:

- عندما ظهرت طفرة علمية مفاجئة، في زمن «أطلانطس»، كانت هذه بداية لحروب طاحنة، لم تنته إلا بفناء الحضارة كلها... ولعل انقراض الديناصورات لم يكن بسبب نيزك ما، ولكن بسبب تلك الحروب الساحقة... والجشع والطمع والرغبة في السيطرة لم تختلف عبر الأجيال، وما زالت موروثًا بشريًّا.

قال ممدوح، مستعيدًا ثباته:

- ولو أعلنًا عن تلك التكنولوجيا المذهلة، التي تحويها تلك التميمة، قد يعيد التاريخ نفسه، وينتهي الأمر بالعالم إلى الفناء.

تمتم مجدي:

- إنه مجرد احتمال.

التفت إليه الاثنان، وعاصم يقول في حزم:

- ألديك سيناريو آخر محتمل؟!

لم يحر جوابًا، ولكن عاصم اعتدل، واتجه نحو التميمة، وأمسك معدنها شديد البرودة بأصابعه، وهو يقول:

- والآن، علينا أن نتخذ قرارنا بحسم وحزم... هل سنستمع إلى ذلك التحذير، الذي أتانا عبر ملايين السنين، أم نتقدم لنيل جائزة نوبل، وشهرة خرافية، وملايين لا حصر لها؟

تمتم ممدوح:

ـ وربما فناء عالمي، في غضون سنوات.

عاد مجدي يكرر:

ـ إنه مجرد احتمال... ولا أحد يدري متى يمكن أن يحدث هذا... ربما بعد ألف عام...

شد عاصم قامته، وقبض على التميمة بيده، وهو يقول بكل الحزم:

ـ وربما بعد ألف يوم.... كل الاحتمالات واردة، ولكننا سنتخذ قرارنا النهائي... وسنتخذه الآن.

كانت زينب قد سبقته، واتخذت قرارها في حسم، قبل عدة ساعات...

والمدهش أن قرارها قد أورثها راحة كبيرة.

وعميقة...

ولأول مرة، منذ زمن طويل، استغرقت في نوم عميق، في فترة القيلولة، وكانت أحلامها هادئة..

ناعمة...

رومانسية...

وجميلة...

رأت في حلمها عاصم، وهي تتأبط ذراعه، وتسير معه وسط حديقة غنَّاء كبيرة..

رأته يتوقف ليقطف زهرة، ويناولها إياها، وملامحه تحمل أجمل ابتسامة حب رأتها، في حياتها كلها...

والعجيب أنها لم تكن تلك الزهرة الحمراء، التي اعتاد العشاق تداولها...

كانت زهرة بيضاء، عودها الأخضر يحمل أوراقًا عريضة، ذات سطح لامع..

وكانت لحظة حب رومانسية..

للغاية...

ـ زينب...

همست أمها بالاسم، ففتحت زينب عينيها في بطء ناعس، وابتسمت في وجه أمها، قائلة:

ـ هل استغرقت في النوم طويلًا؟!

مالت أمها نحوها، قائلة في همس، ليس له ما يبرره، سوى هدوء الحجرة:

ـ عاصم هنا.

رقص قلبها فرحًا، عندما سمعت اسمه، وهبَّت من فراشها، هاتفة في سعادة:

ـ حقًّا؟!

ابتسمت أمها في حنان لسعادتها، وقالت:

ـ والدك يجالسه، حتى تأتين.

واتسعت ابتسامتها، وهي تهم بمغادرة الحجرة قائلة:

ـ ارتدي أجمل أثوابك.

أطلقت زينب ضحكة خجلى، وهي تسرع إلى دولابها..

ولكنها أطاعت أمها...

فعندما رآها عاصم في ذلك الثوب الوردي الهادئ، أطل الانبهار من عينيه واضحًا، ونهض يستقبلها بابتسامة كبيرة..

ابتسامة حب، تشبه تمامًا تلك التي رأتها في حلمها...

وعندما صافحها، استبقى يدها الصغيرة في راحته، وهو يتطلَّع إلى عينيها، قائلًا:

ـ أنت جميلة اليوم كعادتك.

تضرج وجهها بمزيج من حمرتي الخجل والسعادة، وقال والدها؛ للخروج من الحرج:

ـ عاصم أتى لتحديد موعد الزفاف... ما رأيك؟!

لم تجب، وإنما راحت تتطلَّع إلى ابتسامة عاصم، الذي أضاف في خفوت:

ـ ولأعيد إليكِ تميمتك أيضًا.

همست في حزم:

ـ لم أعد أريدها.... لم يعد هناك من يرتديها، في هذا البيت.

اتسعت ابتسامته، وأعادها إلى جيبه، ثم رفع إليها يده بوردة جميلة، وهو يسألها:

ـ ما رأيك أيتها العروس؟!

وامتلأت نفسها انبهارًا....

فقد كانت وردة بيضاء...

نقية...

جميلة...

وردة يحمل عودها أوراقًا خضراء عريضة، ذات سطح لامع.

وفي سعادة، التقطت تلك الوردة، مغمغمة في حياء:

ـ ماذا عن نهاية هذا الأسبوع؟!

أطلقت أمها زغرودة كبيرة...

وابتسم والدها في حنان...

وامتلأت ابتسامة عاصم حبًّا وسعادة...

وفي أعماق جيبه، راحت تلك التميمة تتألق...

وتتألق...

وتتألق.

عن المؤلف

نبيل فاروق أشهر كتّاب الأدب البوليسي والخيال العلمي في الوطن العربي. صدر له أكثر من ٥٠٠ كتاب. قدّم أكثر من ١٦ سلسلة قصصية من أشهرها: «رجل المستحيل» (صدر منها ١٦٠ عددًا)، و«ملف المستقبل» (صدر منها ١٦٠ عددًا)، و«كوكتيل ٢٠٠٠». وُلد في طنطا بمصر عام ١٩٥٦، وتخرّج في كلية الطب في طنطا عام ١٩٨٠. كما فاز الدكتور نبيل فاروق بالجائزة الأولى في مهرجان ذكرى حرب أكتوبر عن قصة «جاسوس سيناء: أصغر جاسوس في العالم».